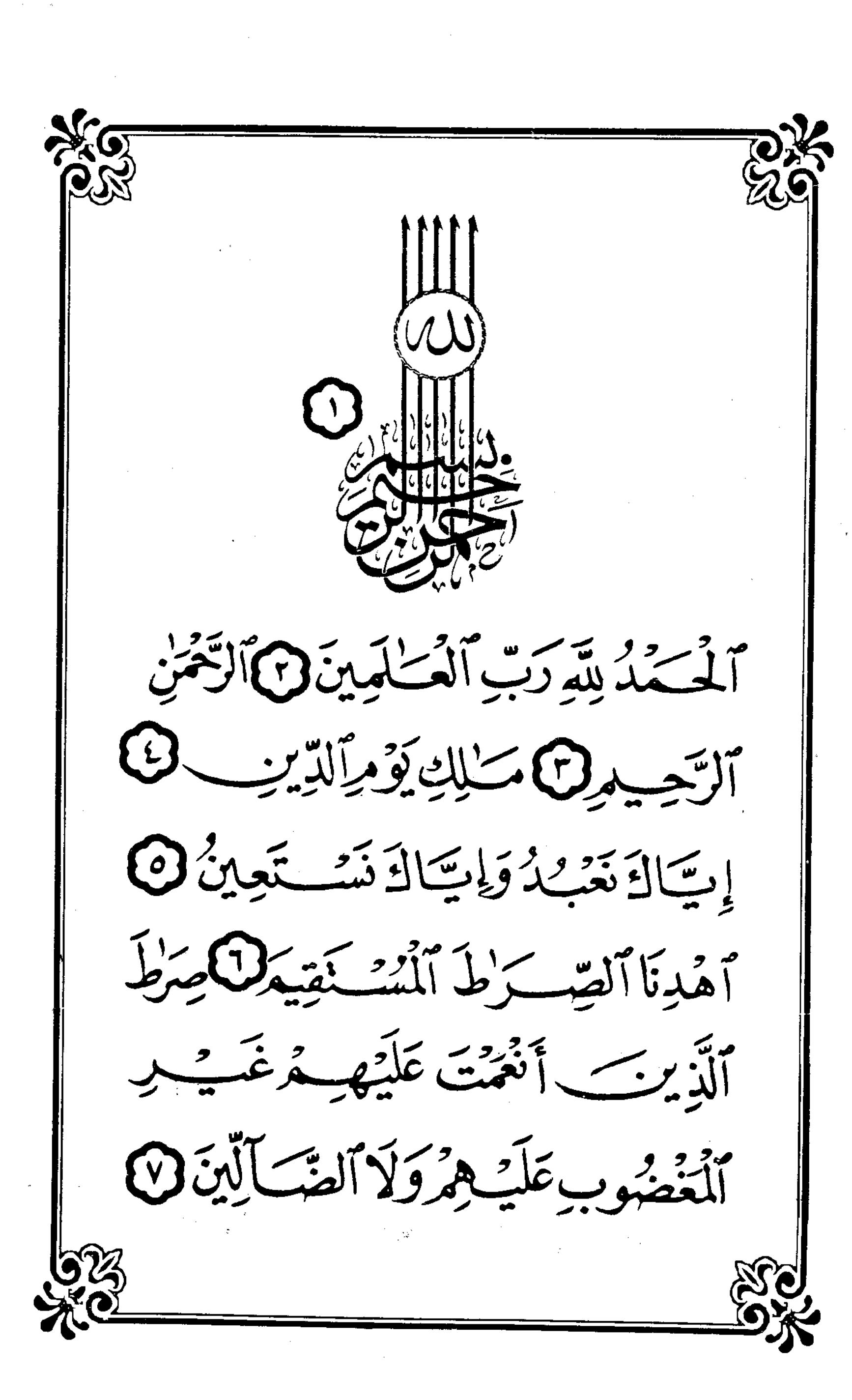
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٦)

اليهود والخيانة

تأليف
الدكتور سعد المرصفي



مكتبة المنار الإسلامية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

اليهودُ والخيانةُ

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م





مكتبة المنار الإسلامية

Print. Publ. & Dist. Islamic Books & Cassattes

طباعة ونشر وتوزيع الكتب والأشرطة الإسلامية

كويت - حولي - شارع المثنى - تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ - فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ - ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي - الرمز البريدي 32045

Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O.Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمـــة

اليهود مجبولون على الخيانة والغدر ونقض العهود، فهم لا يستمسكون بعقد، ولا يوفون بوعد عبر تاريخهم.. وسبق أن ذكرنا طرفا من ذلك فى موقف بنى قينقاع وبنى النضير..

وقد كان فجور زعماء اليهود وراء حشود الأحزاب، فهم الذين أشعلوا نارها، وحركوا زنادها، وحملوا لواءها، وانتهضوا لها ببواعث الحقد الأسود، والحسد الذى ملأ صدورهم، والغدر الذى هو ديدنهم!

وقد انضم إليهم من هم على شاكلتهم ممن امتزج الغيظ والحنق بدمائهم، من بقايا غثاء الإنسانية فى قريش ولفائفها على حرب الرسالة والرسول ﷺ .. وقد أحس الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بروح الغدر والخيانة تمشى فى الظلام، فهو أعلم الناس ــ كما أسلفنا ــ بطبيعة اليهود الغادرة، وجبلتهم الفاجرة، لايطمئن إلى عهودهم بحال، ومن ثم فهويخشى غدرهم، فى الوقت الذى هو مشغول فيه بمواجهة أعدائه المتحزبين عليه.. وقد أرسل من أتى بخبرهم، وتأكد من غدرهم ونقضهم العهد!

وما أسوأ عاقبة الخيانة ــ كما عرفنا ــ فقد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخاطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النفع، فيجلب عليهم الضر، ويشتتهم من ديارهم، وهذا ما حدث لليهود.. فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدا منهم وبغيا،فتم عليهم ما تم، وعلى الباغى تدور الدوائر! وتلك سنة اللّه فى المفسدين!

وأراح الله المسلمين من شر هؤلاء وأولئك:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[1].

ودارت المعركة، وسارت فى طريقها، وانتهت إلى نهايتها.. فى يد الحق، يصرفها كيف يشاء.. وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره. فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تعقيبا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها فى القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.. ولم تدر الدائره على هؤلاء المشركين وحدهم.. بل دارت كذلك على بنى قريظة الذين كفروامن يهود! وهوموضوع حديثنا!

رجاء أن تكون هذه الدراسة سبيلا إلى الحيطة والحذر وعدم الاطمئنان إليهم من جهة، ودافعا إلى الإعداد للمواجهة بما تفرضه ضرورة المعركة من جهة ثانية..

وقد اقتضت منهجية البحث أن يشتمل هذا الموضوع على ما يأتى :

الفصل الأول : بين بنى قريظة والأحزاب .

الفصل الثانى : فى الطريق إلى بنى قريظة .

الفصل الثالث : محاكمة عادلة .

والله أسأل : التوفيق والسداد.

والعون والرشاد ، إنه سميع مجيب !!

الكويت فى : ٣٠ من ذى القعدة ١٤١٢ هـ
١ يونيو ١٩٩٢ م

سعد محمد محمد الشيخ (المرصفى)

---

(١) الأحزاب : ٢٥ ـ ٢٧ .

الفصل الأول

بين بني قريظة والأحزاب

متى كانت الغزوة ؟ ـ اليهود وراء حشود الأحزاب ـ حرس المدينة ـ نقض العهد ـ الرسول يخشى غدر بنى قريظة ـ التأكد من غدرهم ونقضهم العهد ـ حكمة بالغة ـ عظم البلاء ـ موقف المنافقين ـ خصائص المنافقين مستمدة من خصائص اليهود ـ صورة نفسية تثير السخرية ـ صورتان متقابلتان ـ ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ـ صورة المؤمنين ـ درس مستفاد ـ مقابلة فى معرض التربية ـ قصة حذيفة ـ من صفات الفدائى المسلم ـ « ورد الله الذين كفروا » ـ قصة نعيم بن مسعود ـ موقف حكيم ـ « نغزوهم ولا يغزوننا » ـ لمحات من آيات الله ـ تربية واقعية ـ « اذكروا نعمة الله عليكم » .



متى كانت الغزوة ؟ :

قال البخارى : باب غزوة الخندق، وهى الأحزاب. قال موسى بن عقبة: كانت فى شوال سنة أربع. (١)

قال ابن حجر: (٢) يعنى أن لها اسمين ، وهو كما قال ، والأحزاب جمع حزب : أى طائفة .

فأما تسميتها الخندق فلأجل الخندق الذى حفر حول المدينة بأمر النبى ﷺ ، وكان الذى أشار بذلك سلمان فيما ذكر أصحاب المغازى، منهم أبو معشر، قال: قال سلمان للنبى ﷺ : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر النبى ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين، فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم .

وأما تسميتها الأحزاب فلاجتماع طوائف المشركين على حرب المسلمين، وهم قريش، وغطفان، واليهود ومن تبعهم .

وقد أنزل الله تعالى فى هذه القصة صدر سورة الأحزاب ..

وقال من قول موسى بن عقبة: هكذا رويناه فى مغازيه. قلت: وتابع موسى على ذلك مالك، وأخرجه أحمد عن موسى بن داود عنه.

وقال ابن إسحاق: كانت فى شوال سنة خمس، وبذلك جزم غيره من أهل المغازى، ومال المصنف إلى قول موسى بن عقبة، وقواه بما أخرجه من قول ابن عمر رضى الله عنهما: أن النبى ﷺ عرضه يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه. (٣)

قال ابن حجر: فيكون بينهما سنة واحدة، وأحد كانت سنة ثلاث، فيكون الخندق سنة أربع، ولا حجة فيه إذ ثبت أنها كانت سنة خمس، ولاحتمال أن يكون ابن عمر في أحد كان أول ما طعن فى الرابعة عشر وكان فى الأحزاب قد استكمل الخمس عشرة، وبهذا أجاب البيهقى.

---

(١) البخارى: ٦٤ ــ المغازى ٢٩ ــ باب غزوة الخندق..   (٢) فتح البارى:٧: ٣٩٢ وما بعدها بتصرف.

(٣) البخارى: ٦٤ ــ المغازى (٤٠٩٧) ورواه مسلم : ٣٣ ــ الإمارة ٩١ (١٨٦٨) .

ويؤيد قول ابن إسحاق أن أبا سفيان قال للمسلمين لما رجع من أحد: موعدكم العام المقبل ببدر، فخرج النبى ﷺ من السنة المقبلة إلى بدر، فتأخر مجىء أبى سفيان تلك السنة للجدب الذى كان حينئذ، وقال لقومه: إنما يصلح الغزو فى سنة الخصب، فرجعوا بعد أن وصلوا إلى عسفان أو دونها، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره من أهل المغازى.

وقد بين البيهقى سبب هذا الاختلاف، وهو أن جماعة من السلف كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذى وقع بعد الهجره، ويلغون الأشهر التى قبل ذلك إلى ربيع الأول، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان فى تاريخه، فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت فى السنة الأولى، وأن غزوة أحد كانت فى الثانية، وأن الخندق كانت فى الرابعة، وهذا عمل صحيح على ذلك البناء، لكنه بناء واه مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة، وعلى ذلك تكون بدر فى الثانية، وأحد فى الثالثة، والخندق فى الخامسة، وهو المعتمد.

وقال ابن القيم: [١] كانت فى سنةخمس ، من الهجرة فى شوال على أصح القولين ، إذ لا خلاف أن أحداً كانت فى شوال سنة ثلاث وواعد المشركون رسول الله ﷺ فى العام المقبل، وهو سنة أربع، ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس ، جاءوا لحربه، هذا قول أهل السير والمغازى.

وخالفهم موسى بن عقبة وقال: بل كانت سنة أربع ، قال أبو محمد بن حزم: [٢] وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر الذى سبق، وقال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة.

وقد أجاب ابن القيم عن هذا بما سبق ذكره..

ونقل ابن كثير قول ابن حزم هذا، واحتجاجه بحديث ابن عمر، وعلق عليه بقوله: [٣] هذا الحديث مخرج فى الصحيحين، وليس يدل على ما ادعاه ابن حزم؛ لأن مناط إجازة الحرب كانت عنده ﷺ خمس عشرة سنة، فكان لا يجيز من لم يبلغها، ومن بلغها أجازه، فلما كان ابن عمر يوم أحد ممن لم يبلغها ، لم يجزه ولما كان قد بلغها يوم الخندق أجازه وليس ينفى هذا أن يكون قد زاد عليه بسنة أو سنتين أو ثلاث أو أكثر من ذلك، فكأنه قال: وعرضت عليه يوم الخندق وأنا بالغ أو من أبناء الحرب .

---

(١) زاد المعاد : ٣: ٢٦٩ .

(٢) جوامع السيرة : ١٥٨.

(٣) الفصول : ٥٦ .

وقال ولى الدين العراقى: المشهور أنها فى السنة الرابعة. قال الزرقانى: لمزيد إتقان القائلين بذلك، كيف وهم موسى بن عقبة، ومالك، والبخارى ولذا صححه النووى فى الروضة. [١].

قلت: وهذا الذى أرجحه فى هذا المقام.وإنما ذكرت ذلك بالتفصيل؛ لأن غزوة بنى قريظة كانت عقب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب. مباشرة، يوم الأربعاء الذى انصرف فيه من الخندق لسبع بقين من ذى القعدة، قاله ابن سعد. [٢]

اليهود وراء حشود الأحزاب :

يقول ابن القيم: [٣] وكان سبب غزوة الخندق أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبى سفيان لغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل، وخرج أشرافهم كسلاَّم بن أبى الحقيق، وسلاَّم بن مشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو رسول الله ﷺ، ويؤلبونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم، فاستجابوا لهم، ثم طافوا فى قبائل العرب، يدعونهم إلى ذلك، فاستجاب لهم من استجاب فخرجت قريش، وقائدهم أبو سفيان فى أربعة آلاف ووافقتهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف.

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه، استشار الصحابة فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم وكان فى حفره من آيات نبوية، وأعلام رسالته، ما قد تواتر لخبره وكان حفر الخندق أمام سلع، وسلع: جبل خلف ظهور المسلمين،والخندق بينهم وبين الكفار.

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم.

وقال ابن إسحاق: خرج فى سبعمائة، وهذا غلط من خروجه يوم أحد .

---

(١) المواهب اللدنية: ٢: ١٠٤.
(٢) المرجع السابق: ١٢٦.
(٣) زاد المعاد: ٣: ٢٧٠ وما بعدها بتصرف.

وقال الشافعى: [1] ووهم من قال كانوا سبعمائة.

وأمر النبى ﷺ بالنساء والذرارى، فجعلوا فى آطام المدينة، واستخلف عليها ابن أم مكتوم.

حرس المدينـــة :

وفى المواهب: قال ابن سعد: [2] كان يبعث سلمة بن أبى أسلم فى مائتى رجل وزيد ابن حارثة فى ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير خوفا على الذرارى من بنى قريظة، زاد غيره فإذا أصبحوا أمنوا.

نقض العهـــد :

قال ابن إسحاق: وخرج عدو الله حيى بن أخطب، حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم، وكان وادع رسول ﷺ على قومه وعاقده، فأغلق كعب دونه باب حصنه، وأبى أن يفتح له، وقال: ويحك ياحيى، إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بينى وبينه، فإنى لم أر منه إلاوفاء وصدقا. فقال ويحك افتح لى، ولم يزل به حتى فتح له. وذلك أنه نسبه إلى البخل بالطعام فقال: والله إن أغلقت دونى إلا تخوفا على جشيشتك أن آكل معك منها، ففتح له، فقال: ويلك ياكعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلهم بمجتمع الأسيال ومن دونه غطفان، وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شىء، ويحك يا حيى، دعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء ولم يزل به يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول اللهّ ﷺ أعطاه عهدا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك، يصيبنى ما أصابك.

الرسول يخشى غدر بنى قريظة :

وفى الوقت ذاته كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أعلم الناس بطبيعة اليهود الغادرة، لا يطمئن إلى عهودهم، ويخشى غدرهم، وهو ﷺ مشغول بمواجهة أعدائه المتحزبين عليه وقد أحس الرسول ﷺ بروح الغدر تمشى فى الظلام إلى بنى قريظة، فقال لأصحابه فيما يرويه البخارى عن عبد اللّه بن الزبير رضى الله عنهما قال: كنت يوم الأحزاب،

---

(١) المواهب اللدنية :٢: ١١١ .

(٢) المرجع السابق .

جعلت أنا وعمر بن أبى سلمة فى النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بنى قريظة، مرتين أو ثلاثا. فلما رجعت قلت: يا أبت! رأيتك تختلف، قال: أوهل رأيتنى يابنى؟ قلت: نعم! قال : كان رسول الله ﷺ قال :

« **من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟** »

فانطلقت، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه، فقال: «**فداك أبى وأمى**»[1].

التأكد من غدرهم ونقضهم العهد :

ولما انتهى خبر بنى قريظة إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وأنهم نقضوا عهده، أراد كما فى رواية أصحاب المغازى، أن يتأكد مما بلغه،حتى لا يصل الخبر إلى عامة المجاهدين إلا وهم قد علموا أن رسول الله ﷺ قد أحاط خبرا، واتخذ له من الأحداث أقرانه .

حينئذ بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، [2] ومعهما ابن رواحة، وخوَّات بن جبير الأنصارى الأوسى، زاد الواقدى: وأسيد بن حضير، ليعرفوا الخبر.

قال ابن القيم[3] : هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم، فوجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد، وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين .

جاء فى المواهب [4] رواية أصحاب المغازى هذه لا تنافى رواية الصحيح أنه أرسل الجميع دفعة، أو بعد إرسال الزبير، لا حتمال أن يرجعوا إلى العهد بعد نقضه، حياء من حلفائهم، لأنهم كانوا حلفاء الأوس، وقد أرسل إليهم سيدهم، فغلبت عليهم الشقوة، وليس لك أن تقول: أو لاحتمال أن الزبير علم من غيرهم نقض العهد، فاكتفى به، لأنه ظن سوء بمثل الزبير تأباه مروءته وشجاعته.

حكمـة بالغــة :

وفى بعث السعدين ومن معهما لون من الحكمة السياسية [5] البالغة، يمثل معلما من

---

(١) البخارى: ٦٢ ـ فضائل الصحابة (٣٧٢٠)، ورواه مسلم : ٤٤ فضائل الصحابة ٤٩(٢٤١٦)، والترمذى مختصرا(٣٧٤٣) وانظر ما قاله الحافظ فى فتح البارى: ٧: ٨١ حول رواية مسلم.

(٢) المواهب اللدنية:٢: ١١٢ ـ١١٣ .

(٣) زاد المعاد: ٣: ٢٧٢.

(٤) المواهب اللدنية : ٢ : ١١٣ .

(٥) محمد رسول الله:٤/ ١٥٦ وما بعدها بتصرف.

معالم منهج الرسالة الخالدة، التى قصد إليهاالرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى أخذ بنى قريظة بغدرهم ونقضهم العهد.

ذلك أنه ﷺ بعث حواريه الزبير بن العوام إلى بنى قريظة، ليتعرف حالهم ـ كما أسلفنا ـ فذهب إليهم الزبير، ورجع إلى رسول الله ﷺ يخبره أنهم على أخبث حال، يضمرون الغدر، وينقضون العهد..

لم يشك لحظة فى صدق خبر الزبير عنهم، ولكنه ﷺ كان على أكمل العلم بما كان بين الأنصار وطوائف اليهود من روابط جاهلية لم تنفصم عراها، وكانت هذه الروابط تبرزعند مناسباتها، فى أوقات الأزمات والمحن، وكان بين الأنصار من الأوس والخزرج تنافس قديم، وكانت هناك حمية لهذه الروابط،يكرهون أن تمس من غيرهم، وكثيراً ما كان يقع التفاؤل والتصاول بين الحيين من وراء هذه الروابط بين الحيين من جراء هذه الروابط الجاهلية!

فرأى رسول الله ﷺ أن يحتاط، ويجعل أمر بنى قريظة فى أخذهم بغدرهم قائما على أخبار حلفائهم، مواليهم من الأنصار الذين أصبحوا سادة المجتمع المدنى، حتى إذا أخذوا بغدرهم كان أخذهم بأيدى من كانوا يرتبطون بهم، ويدافعون عنهم.

ولذلك اختار القرظيون تحكيم سعد بن معاذ ـ كما سيأتى ـ فى نهاية أمرهم، بعد أن حاصرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حصارا شديدا، ولكن سعد بن معاذ كان رجلا قوى الإيمان راسخ اليقين، غسل الإيمان قلبه من تلك الروابط الجاهلية، فلم تأخذه فيه لومة لائم، وحكم فيهم بحكم الله تعالى، الذى ارتضاه رسوله ﷺ ، والمؤمنون، وقد كان الأوس قوم سعد بن معاذ يرجون منه أن يحسن إليهم وينقذهم من أسوأ مصير ينتظرهم..

هذه سياسة حكيمة بالغة رسمت للمجتمع المسلم جانبا من جوانب منهج الرسالة الخالدة، ليكون دعامة الدعائم الاجتماعية فى سياسة المجتمع المسلم فى مستقبل حياته.

عظـــم البلاء :

ونزلت حشود الأحزاب وجموعهم منازلها من ميدان المعركة، محيطين بكتائب المجاهدين، إذ جاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، واشتد البلاء وعظم الخطب، وزاغت الأبصار، وتعاظم البلاء :

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ

﴿ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1].

وعن ابن مردويه عن ابن عباس : [2]

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ ﴾

قال: عيينة بن حصن.

﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

وأبو سفيان بن حرب، حتى ظن المؤمنون كل ظن.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

أى المختلفة بالنصر واليأس.

حقا، إنها صورة الهول الذى روع المدينة [3] ، والكرب الذى شملها، والذى لم ينج منه أحد من أهلها. وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان، واليهود من بنى قريظة، من كل جانب. من أعلاها ومن أسفلها. فلم يختلف الشعور بالكرب والهول فى قلب عن قلب، وإنما الذى اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها فى الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج. ومن ثم كان الابتلاء كاملا، والامتحان دقيقا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسما لا تردد فيه.

وننظر اليوم فنرى الموقف بكل سماته، وكل انفعالاته، وكل خلجانه، وكل حركاته، ماثلا أمامنا، كأننا نراه من خلال هذا النص القصير.

ننظر فنرى الموقف من خارجه.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾

ثم ننظر فنرى أثر الموقف فى النفوس:

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾

وهو تعبير مصور لحالة الخوف والكربة والضيق، يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب:

---

(١) الأحزاب: ١٠ ـ ١١ .   (٢) المواهب اللدنية :٢: ١١٣.

(٣) فى ظلال القرآن: ٥ : ٣٧ ٢٨ بتصرف.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾

ولا يفصل هذه الظنون. ويدعها مجملة ترسم حالة الاضطراب فى المشاعر والخوالج، وذهابها كل مذهب، واختلاف التصورات فى شتى القلوب.

ثم تزيد سمات الموقف بروزا، وتزيد خصائص الهول فيه وضوحا:

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

والهول الذى يزلزل المؤمنين لابد أن يكون هولا مروعا رعيبا، حتى شغلوا عن الصلاة الوسطى، يروى الشيخان وغيرهما عن على رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق:

«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى، حتى غابت الشمس». (١)

موقف المنافقين:

ونقرأ بعد ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٢).

وإذا كنا قد أبصرنا عظم البلاء على المسلمين، وهم محصورون بالمشركين من جهة، ويتوقعون ما يجيء من بنى قريظة من جهة، حتى لم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون، وأن تميل عليهم يهود، وهم قلة من بين هذه الجموع، التى جاءت بنية استئصالهم فى معركة حاسمة أخيرة، فإننا نبصر فى الوقت ذاته ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة وبين الصفوف:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

---

(١) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤١١١)، ومسلم: ٥ ـ المساجد ٢٠٣ (ت ٦٢٧)، والترمذى: ٤٨ التفسير (٢٩٨٤)، وأبو داود: الصلاة (٤٠٥) عون المعبود، والنسائى: ١: ٢٣٦، وابن ماجه: الصلاة (٦٨٤).

(٢) الأحزاب: ١٢ ـ ١٣.

فقد وجد هؤلاء فى الكرب المزلزل، [1] والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئةنفوسهم، وهم آمنون من أن يلومهم أحدا، وفرصة للتوهين والتخذيل، وبث الشك والريبة فى وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون.

فالواقع بظاهره يصدقهم فى التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول فد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمل، وروع نفوسهم ترويعا لا يثبت له إيمانهم المهلهل! فجهروا بحقيقة ما يشعرون، غير مبقين ولا متجملين!

ومَثَلُ هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمٌ فى كل جماعة، وموقفهم فى الشدة هو موقف إخوانهم هؤلاء. فهم نموذج مكرر فى الأجيال والجماعات على مدار الزمان ..

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودةإلى بيوتهم، بحجة أن إقامتهم لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم..

وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذرارى، والخطر محدق، والهول جامح، والظنون لاتثبت ولا تستقر!

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾

يستأذنون بحجة أن بيوتهم مكشوفة للعدو، متروكة بلا حماية.

وهنا يكشف القرآن الكريم عن الحقيقة، ويجردهم من العذر والحجة:

﴿ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ﴾

ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال، والجبن والفرار:

﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

ويقف السياق القرآنى عند هذه العبارة المصورة لموقف البلبلة والفزع والمراوغه .. يقف ليرسم صورة نفسية لهؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض..صورة نفسية داخلية لوهن العقيدة، وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف بمجرد مصادفة، غير مبقين على شىء، ولا متجملين لشىء :

---

(١) فى ظلال القرآن : ٥ : ٢٨٣٨ وما بعدها بتصرف.

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ (١)

ذلك كان شأنهم والأعداء خارج المدينة، ولم تقتحم عليهم بعد. ومهما يكن الكرب والفزع، فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع، فأما لو وقع واقتحمت المدينة من أطرافها:

﴿ ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ ﴾

وطلبت إليهم الردة عن دينهم:

﴿ لَآتَوْهَا ﴾

سراعا غير متلبثين، ولا مترددين:

﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾

من الوقت، أو إلا قليلا منم يتلبثون شيئا ما قبل أن يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا!

فهى عقيدة واهنة لا تثبت! وهو جبن عامر لا يملكون معه مقاومة!

هكذا يكشفهم القرآن الكريم ويقف نفوسهم عارية من كل ستار!

خصائص المنافقين مستمدة من خصائص اليهود:

ثم يصمهم بعد هذا بنقض العهد، وخلف الوعد.

ومع من؟

مع الله الذى عاهدوه من قبل على غير هذا، ثم لم يراعوا مع الله عهدا:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ (٢).

قال الطبرى: ذكر أن ذلك نزل فى بنى حارثة لما كان من فعلهم فى الخندق بعد الذى كان منهم بأحد (٣).

فأما يوم أحد فقد تداركهم الله برحمته ورعايته وثبتهم، وعصمهم من عواقب

(١) الأحزاب: ١٤. (٢) الأحزاب: ١٥. (٣) تفسير الطبرى: ٢١: ١٣٧.

الفشل، وكان ذلك درسا من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد.

فأما اليوم، وبعد الزمن الطويل، والتجربة الكافية فالقرآن الكريم يواجههم هذه المواجهة، ويقرر إحدى القيم الباقية التى يقررها فى أوانها،، ويصحح التصور الذى يدعوهم إلى نقض العهد والفرار:

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [1].

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها فى الطريق المرسوم، وينتهى إلى النهاية المحتومة.

والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه، فى موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولن ينفع الفرار فى دفع القدر المحتوم عن فار. فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، فى موعده القريب، وكل موعد فى الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل.

ولا عاصم من الله، ولا من يحول دون نفاذ مشيئته، سواء أراد بهم سوءًا أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير، من دون الله، يحميهم ويمنعهم من قدر الله.

فالاستسلام الاستسلام.

والطاعة الطاعة.

والوفاء الوفاء بالعهد مع الله، فى السراء والضراء.

ورجع الأمر إليه، والتوكل الكامل عليه.

ثم يفعل الله ما يشاء.

صورة نفسية تثير السخرية:

ثم يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوقين، الذين يقعدون عن الجهاد ويدعون غيرهم إلى القعود..

---

(١) الأحزاب: ١٦ ـ ١٧.

ويرسم لهم صورة نفسية معبرة، و هى ـ على صدقها ـ تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور فى الناس!

صورة للجبن والانزواء، ، والفزع والهلع، فى ساعة الشك!

والانتفاش وسلاطة اللسان، عند الرخاء!

والشح على الخير والضن ببذل أى جهد فيه!

والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد!

والقرآن الكريم يرسم هذه الصورة فى لمسات مبدعة لا سبيل إلى استبدالها أو ترجمتها فى غير سياقها المعجز:

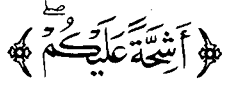
﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(1).

وأول ما يطالعنا تقرير علم الله المؤكد بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل فى صفوف الجماعة المسلمة، الذين يدعون إخوانهم إلى القعود:

﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ولا يشهدون بالجهاد إلا لماما، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم مكشوف.

ثم تأتى بقية سمات هذا النموذج :



﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾

(1) الأحزاب : 18 ـ 20 .

ففى نفوسهم كزازة على المسلمين!

كزازة بالجهد، وكزازة بالمال، وكزازة فى العواطف والمشاعر على السواء:

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾

وهى صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهى فى الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذى تنطق أوصاله وجوارحه فى لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار!

وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجىء الأمن:

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾

فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا فى غير حياء، ماشاء لهم الادعاء، من البلاء فى القتال، والفضل فى الأعمال، والشجاعة والاستبسال.

ثم هم:

﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾

فلا يبذلون للخير شيئا من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم، مع كل ذلك الادعاء العريض، ؛ وكل ذلك التبجح وطول اللسان!

وهذا النموذج من الناس لاينقطع فى جيل ولا فى قبيل!

فهو موجود دائما !

وهو شجاع فصيح بارز، حيثما كان هناك أمن ورخاء!

وهو جبان صامت منزو، حيثما كان هناك شدة وخوف!

وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان!

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾

فهذه هى العلة الأولى!

العلة أن قلوبهم لم تخالطها بشاشة الإيمان، ولم تهتد بنوره، ولم تسلك منهجه:

﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

ولم ينجحوا، لأن عنصر النجاح الأصيل ليس هناك:

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

وليس هناك عسيرا على الله، وكان أمر الله مفعولا.

ويمضى التعبير القرآنى فى تصويرهم يوم الأحزاب صورة مضحكة زرية:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾

فهم ما يزالون يرتعشون، ويتخاذلون، ويخذّلون!

ويأبون أن يصدقوا أن الأحزاب قد ذهبت، وأنه قد ذهب الخوف، وجاء الأمان!

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾

يا للسخرية!

ويا للتصوير الزرى!

ويا للصورة المضحكة!

وإن يأت الأحزاب يودوا هؤلاء الجبناء لو أنهم لم يكونوا من أهل المدينة يوما من الأيام. ويتمنون أن لو كانوا من أعراب البادية، لا يشاركون أهل المدينة فى حياة ولا مصير. ولا يعلمون حتى مايجرى عند أهلها. إنما هم يجهلونه، ويسألون عنه سؤال الغريب عن الغريب مبالغة فى البعد والانفصال، والنجاة من الأهوال!

يتمنون هذه الأمنيات المضحكة، مع أنهم قاعدون، بعيدون عن المعركة، لا يتعرضون لها مباشرة، إنما هو الخوف من بعيد! والفزع من بعيد!

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وبهذا ينتهى رسم الصورة لهذا النموذج الذى كان يعيش فى الجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة، والذى مايزال يتكرر فى كل جيل وكل قبيل. بنفس الملامح، وذات السمات..

ينتهى رسم الصورة وقد تركت فى النفوس الاحتقار لهذا النموذج، والسخرية منه، والابتعاد عنه، وهوانه على الله وعلى الناس!

صورتان متقابلتان :

ذلك كان حال المنافقين والذين فى قلوبهم مرض والمرجفين فى الصفوف، وتلك كانت صورتهم الرديئة!

ولكن الهول والكرب والشدة والضيق لم تحول الناس جميعا إلى هذه الصورة الرديئة..

كانت هنالك صورة وضيئة فى وسط الظلام، مطمئنة فى وسط الزلزال، واثقة بالله، راضية بقضاء الله، مستيقنة من نصر الله بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب..

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » :

ويبدأ السياق بهذه الصورة الوضيئة بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١).

وقد كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على الرغم من الهول المرعب، والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان.

وهنا تأتى ضرورة دراسة موقفه ﷺ فى صدق جهاده (٢) وقوة صبره على لأواء الحياة وشظفها وشدة أزماتها، وتحمل أشد البلاء فى سبيل نشر رسالته لإعلاء كلمة الله، ومجاهدة شراذم الكفر، وفئات النفاق.. ليعلموا أن ليس فى قلوب المؤمنين هوادة لهم ، ولا مداراة لمخازيهم!

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) محمد رسول الله : ٤ : ١٦٤ بتصرف .

ولن يتحقق هذا التأسي بالرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلا لمن صفا قلبه، واستنار بنور الهداية فؤاده، واستوى فى الإخلاص للإسلام باطنه وظاهره، وهذا الاستواء فى الإخلاص لا يكون إلا بمعرفة حق رسول الله ﷺ على كل مؤمن برسالته، والإيمان بأنه ﷺ المحفوظ بتوفيق الله وتسديده بوحيه، فلا يخدع بنفاق المنافقين.

وهذا معنى تأكيد التأسي برجاء اليوم الآخر، والإيمان بمجيئه لتوفية كل عامل جزاء عمله.

وأمارة ذلك أن يذكر العبد ربه ذكرا قلبيا، يغسل درن النفاق، وذكرا لسانيا يتطابق مع الذكر القلبى، ليكون ذلك عنوانا على إخلاص الإيمان، وصدق المؤمنين.

وهذا تحريض للمجتمع المسلم فى جميع أجياله(١) ، وأزمانه وأوطانه، على التسامى بأنفسهم وأخلاقهم، وقوة إيمانهم، ورسوخ يقينهم، إلى آفاق البطولة الروحية والمادية التى تتطلبها المكانة القيادية الإنسانية، التى نيطت بهذا المجتمع المسلم.

وهو تحريض لهذا المجتمع على الاعتصام بعظائم الأمور، وإعداد أقرانها لها، مهما تكن محفوفة بمخاطر المحن، وشدائد البلاء.

وهو تحريض للمجتمع المسلم أينما كان وجوده من أرض الله، علي أن يتخذ من الصبر وقاية يتقى بها المزالق أمام أحداث الحياة، كيفما كانت مضائقها.

وحظ الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الأسوة أن الله أشهدهم بذواتهم أعمال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وهي تجري على يديه حركات دائبة في سبيل نشر دعوته، وتبليغ رسالته، إلى الإنسانية في أرجاء الحياة.

أما حظ من جاء بعدهم من أجيال المجتمع المسلم، فهو حظ الحارس الأمين في الحفاظ على ما أسندت إليه أمانة حفظه،وحراسته بمثل ما كان عليه من سلموا له الأمانة من العمل في الدفاع عن هذه الأمانة ، وتبليغها ونشرها فى الآفاق.

ولا يكون المؤمن أمينا على القيام بحفظ أمانته إلا إذا علم قدرها، وعرف كيف يؤديها كما أديت إليه.

---

(١) المرجع السابق : ١٩٩ بتصرف.

وأسلوب الآية الكريمة يجعل من ذات رسول الله ﷺ بوصفه رسولا من الله الأسوة نفسها لمجتمعه المسلم، فهو ﷺ بوصف أنه رسول الله هو الأسوة نفسها، فكل عمل من أعمال رسالته هو موضع للتأسي به، يجب على كل فرد من أفراد مجتمعه وأمته أن يتخذ هذا العمل أسوة له، بقدر استعداده الفطري، واستطاعته المكتسبة.

وهذه مبالغة قصد بها إفادة أن جميع ما يصدر عنه ﷺ إنما يصدر عنه بهذاالوصف الذي هو موجب لمتابعته فى جميع ما يثبت عنه من الأقوال والأفعال على محاملها.

فرسالته ﷺ هى منبع التأسي به، وهذا المنبع موحد الإمداد بكل ما يكون فيه التأسي والاقتداء،وفي هذا غنية عن الحديث عن الخصائص البشرية التي منحها ﷺ فاختص بها واختصت به، لأن أمر هذه الخصائص خارج عن التقيد بوصف الرسالة إلا باعتبارها مخبرة عنه، لأن الأصل عموم التأسى، وهذا كالاستثناء المخصص للعموم.

وفي الآية نكتة بيانية من متعلقات الإعجاز القرآني في هدايته وروعة أسلوبه، وهذه النكتة تعطي معنى التأسي به ﷺ صورة من قوة الإيمان، ورسوخ اليقين، فى متابعته ﷺ متابعة تجعلها لباب الإيمان، وزبدة الإخلاص.

وتلمح هذه النكتة في قوله:

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾

بعد قوله:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

الذي هو في مطلق معناه عين ما جاء بعده في إجمال هذا المعنى .

بيد أن قوله : ﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ ربط تأسيهم بزبدة الإخلاص الذي هو مرتبة فوق مرتبة قوة الإيمان.

فإذا كان التأسي بالنسبة لصادقي الإيمان الذين صعد بهم إيمانهم إلى ذروة الإخاء كافيا أن يقال فيه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

باعتبار عودة ضمير الخطاب إلى صادقي الإيمان، فإنه بالنسبة لعامة الأمة ممن لم يصل

إيمانهم إلى درجة الإخلاص علما وعملا غير كاف أن يقال فيه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ ﴾

بل هو في حاجة إلى حياطته بشيء من التوثق في داخل نفوسهم بشيء من الربط بما هو غيب لا يعرف مكان الإيمان منه، وليس ذلك إلا رجاء فضل الله ورحمته، ورجاء تفضله وإحسانه على كل مؤمن لقيه بعقيدة الإيمان، والرجاء مرتبة بين الإخلاص والإيمان.

ولهذا عقب ذلك بقوله:

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

لأن كثرة ذكر الله هي العروة الوثقى فى الربط بين الإيمان ورجاء فضل الله وإحسانه في اليوم الآخر.

صــورة المؤمنين:

وتأتي صورة [1] الإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الهول، وفى لقاء الخطر .. الخطـر الذى يزلزل القلوب المؤمنـة، فتتخذ من هذا الزلزال مادة للطمأنينة والثقة والاستبشار واليقين:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [2].

لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون فى هذا الحادث من الضخامة، وكان الكرب الذى واجهوه من الشدة، وكان الفزع الذى لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالا شديدا، كما قال عنهم أصدق القائلين:

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

لقد كانوا ناسا من البشر. وللبشر طاقة. لا يكلفهم الله ما فوقها. وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله فى النهاية، وببشارة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كله إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق ..

---

(١) فى ظلال القرآن: ٥ : ٢٨٤٣ بتصرف.　　(٢) الأحزاب : ٢٢.

على الرغم من هذا كله، فإن الهول الذى كان حاضرا يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم ..

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضل عن سنن الله، والثقة التى لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها...

ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببا في انتظار النصر. ذلك أنهم صدقوا قول الله من قبل:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (١).

وها هم أولاء يزلزلون. فنصر الله إذن منهم قريب ! ومن ثم قالوا:

﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

هذا الهول ، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق ، وعدنا عليه النصر. فلابد أن يجيء النصر:

﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾

صدق الله ورسوله فى الإمارة ، وصدق الله ورسوله في دلالتها ..

ومن ثم اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله:

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

لقد كانوا ناسا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر. وليس مطلوبا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشرى ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه ومميزاته. فلهذا خلقهم الله.. خلقهم ليبقوا بشرا، ولا يتحولوا

---

(١) البقرة : ٢١٤.

جنسا آخر.. لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرا.. كانوا ناسا من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة .. ولكنهم كانوا مع هذا مرتبطين بالعروة الوثقى التى تشدهم إلى الله، وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل ، وتحرسهم من القنوط .. وكانوا بهذا وذاك نموذجا فريدا فى تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.

درس مستفاد :

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور ..

علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرا، بكل ما تحمله طبيعة البشر من قوة وضعف.

وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبنى الإنسان ، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة، أو زلزلنا مرة، أو فزعنا مرة، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق.. فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدا !

ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا، لأنه من فطرتنا البشرية، ونصر عليه، لأنه يقع لمن هم خير منا، فإن هنالك العروة الوثقي التي لا انفصام لها .. هنالك عروة السماء وعلينا أن نستمسك بها، لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة،ونتخذ من الزلزال بشيرا بالنصر. فنثبت ونستقر ، ونقوى ونطمئن، ونسير فى الطريق..

مقابلة فى معرض التربية :

وهذا هو التوازن الذى صاغ ذلك النموذج الفريد في ضوء الإسلام.. النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية، وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله، فمنهم من لقيه، ومنهم من ينتظر إلى أن يلقاه:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾(١).

وهذه الصورة الوضيئة المضيئة لهذا النموذج من المؤمنين تذكر هنا تكملة لصورة

(١) الأحزاب : ٢٣ .

الإيمان .. في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك الفريق، لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن.

ويعقب عليها ببيان حكمة الابتلاء، وعاقبة النقض والوفاء، وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله:

﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1].

ومثل هذا التعقيب يتخلل تصوير الحوادث والمشاهد، ليرد الأمر كله إلى الله ويكشف عن حكمة الأحداث والوقائع. فليس شيء منها عبثا ولا مصادفة .. إنما تقع وفق حكمة مقدرة، وتدبير قاصد، وتنتهي إلى ما شاء الله من العواقب. وفيها تتجلي رحمة الله بعباده، ورحمته ومغفرته أقرب وأكبر.

قصة حذيفة:

ولا يفوتنا هنا أن نذكر قصة دخول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بين حشود الأحزاب، وتخلله جموعهم،[2] وتولجه بين صفوفهم، بأمرالرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ليتعرف له أخبارهم، ويسبر أحوالهم، ويكشف عن أسرارهم، وما نزل بهم من كوارث البلاء، وفوادح المحن، وما تفعله بهم الريح التي أرسلها الله تعالى عليهم، مع جنود من التدبير، وجوائح الخطوب، وقاصفات العواصف، ومزلزلات الكروب، مما جعل مقامهم في منازلهم من ميدان المعركة محالا، مع ما أصابهم من تفكك عرى روابطهم الزائفة التى شتت شملهم، ومزقت كلمتهم، حتي شغل كل فريق منهم بنفسه عن نفسه، لما واقعهم من مفاجآت النوازل، وصاخّات المصائب، حتي رحلوا وهم على أبشع حال من البلاء.

يروى مسلم عن إبراهيم التيميّ عن أبيه، قال:

كنا عند حذيفة. فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت. فقال حذيفة:

---

(١) الأحزاب: ٢٤.

(٢) محمد رسول الله: ٤: ١٩٠ وما بعدها بتصرف.

أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب . وأخذتنا ريح شديدة وقُرّ . فقال رسول الله ﷺ :

« **ألا رجل يأتيني بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة ؟** »

فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال:

« **ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معى يوم القيامة ؟** »

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد.ثم فقال:

« **ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله اللّه معى يوم القيامة ؟**» **فسكتنا. فلم يجبه منا أحد . فقال** : « **قم يا حذيفة ! فَأْتنا بخبر القوم** » .

فلم أجد بدا . إذ دعاني باسمى ، أن أقوم . قال:

« **اذْهب . فأتنى بخبر القوم . ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** »

فلما ولّيت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام. حتى أتيتهم. فرأيت أبا سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنار. فوضعت سهما في كبد القوس . فأردت أن أرميه. فذكرت قول رسول الله ﷺ :

«**ولا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ** »

ولو رميته لأصبته. فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم ، وفرغت قُرِرْتُ . فألبسَني رسولُ الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يُصَلِّي فيها . فلم أزل نائما حتى أصبحت. فلما أصبحت قال:

« **قُمْ يا نَوْمَانُ** » [١].

وقد تعددت الروايات في ذلك، وحسبنا أن نذكر تلك الرواية التفسيرية التي رواها البزار بسند رجاله ثقات عن حذيفة أن الناس تفرقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا ، فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جَاثم من القوم ، فقال:

« **يا بن اليمان ، قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، فانظر إلى حالهم** » .

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٩٩ (١٧٨٨) .

قلت : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق، ما قمت لك إلا حياء من البرد ، قال:

« **انطلق يا بن اليمان ، فلا بأس عليك من بَرْدٍ ولا حَرّ ، حتى ترجع لى** ».

فانطلقت حتى أتيت عسكرهم، فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عصبة حوله ، وقد تفرق الأحزاب عنه، فجئت حتى أجلس فيهم، فحسَّ أبو سفيان أنه قد دخل فيهم مِنْ غيرِهم، فقال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال: فضربت بيديِ على الذي عن يميني، فأخذتُ بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يسارى، فأخذت بيده، فلبثت فيهم هُنَيْهَةً ، ثم قمت ، فأتيت النبى ﷺ ، وهو قائم يصلي ، فأومأ إِلىَّ أن أَدْنو، فدنوت حتى أرسل علىَّ من الثوب الذى كان عليه ليدفئنى، فلما فرغ من صلاته قال :

« **يا بن اليمان ، اقعد ، ما خبر الناس ؟** » .

فقلت: يا رسول اللّه ! تفرق الناس على أبي سفيان، فلم يبق إلا في عصبة توقد النار، وقد صبَّ الله تبارك وتعالى عليهم من البرد الذي صبّ علينا، ولكنا نرجو من الله مالا يرجون (١) .

ورواه الحاكم وغيره (٢) .

من صفات الفدائى المسلم :

وهكذا ذهب حذيفة رضى الله عنه إلى جموع الأحزاب ، ودخل بينهم ، والظلام الشديد يستره.. دخل بينهم دخول الفدائي المسلم الذي يكتنفه الموت من جميع أكنافه، ويحتويه من سائر جوانبه، وهو لا يبالى، ولكن حذيفة كان حاذق الرأى ، خبيرا بتصرف الأمور إذا تأزمت، سريع البادرة، ثابت اليقين، راسخ الإيمان، فطن الفطرة ، زكيَّ الفؤاد ، متماسك الشخصية.

وهذه هي الصفات التي يجب أن تتوافر فى الأفراد والجماعات الذين يكونون موضع الثقة الخاصة للقيادة، عند اشتداد الأزمات واستحكام الأخطار.

---

(١) مجمع الزوائد ٦ : ١٣٦.

(٢) المستدرك : ٣ : ٣١ وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي، وانظر : البداية : ٤ : ١١٤ ـ ١١٥ ، وابن هشام : ٢ : ١٩٤ ، وأحمد : ٥ : ٣٩٢ ـ ٣٩٣ ، والمواهب اللدنية : ٢ : ١١٧ وما بعدها .

وقد عرف حذيفة خبر الأحزاب ، ورجع فأخبر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ خبر القوم .

ولا ننسى موقفه من أبي سفيان وهو يصلى خاصرته بالنار من شدة البرد، وتمكنه من قتله، لولا تذكره قول النبي ﷺ !

«ولاتذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» .

وهو موقف يمثل الانضباط الكامل للجندية الفدائية.

ولا ننسى كذلك موقفه وهو يسمع أبا سفيان يقول حين أحسّ بوجوده بينهم: ليأخذ كل منكم بيد جليسه. فإذا بحذيفة رضي الله عنه يضرب بيده على الذي عن يمينه، والذي عن يساره.

وهو موقف يمثل الثبات الكامل والحركة المناسبة في الوقت المناسب.

« ورد الله الذين كفروا » :

وهنا نقرأ ختام الآيات عن الحدث الضخم بعاقبته التي تُصدِّق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم، وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[١] .

وهكذا بدأت المعركة، وسارت في طريقها، وانتهت إلى نهايتها ، وزمامها في يد الحق، يصرفها كيف يشاء، وأثبت النص القرآني هذه الحقيقة بطريقة تعبيره فأسند إلى الله إسنادا مباشرا كل ما تم من الأحداث والعواقب، تقريرا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها في القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.

قصة نعيم بن مسعود :

قال ابن حجر : [٢] وذكر أهل المغازي سبب رحيلهم، وأن نعيم بن مسعود الأشجعى ألقى بينهم الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك، ثم أرسل الله عليهم

---

(١) الأحزاب : ٢٥.　　(٢) فتح الباري : ٧ : ٣٩٣.

الريح فتفرقوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

قلت: ذكر هذه القصة ابن إسحاق بدون إسناد، وعنه ابن هشام، [1] وقد أوردها علماء السير، وقال ابن كثير بعد ذكره للقصة: [2] وهذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة نعيم بن مسعود أحسن مما ذكره موسى بن عقبة. وقد أورده عنه البيهقى في الدلائل .. وقد عقب ابن كثير بقوله: وقد يحتمل أن تكون قريظة لما يئسوا من انتظام أمرهم مع قريش وغطفان بعثوا إلى رسول الله ﷺ يريدون منه الصلح،على أن يرد بنى النضير إلى المدينة.

قلت: وأرى في هذا الاحتمال من ابن كثير صرف الرواية عن ظاهرها.. وعلى كل فقد أحسن ابن سعد [3] حيث جعل دور ابن مسعود موقوفا عليه، قال:

وكان نعيم بن مسعود الأشجعي قد أسلم فحسن إسلامه، فمشي بين قريش وغطفان، وأبلغ هؤلاء عن هؤلاء كلاما، وهؤلاء عن هؤلاء كلاما، يرى كل حزب منهم أنه ينصح له، فقبلوا قوله، وخذله عن رسول الله ﷺ ، واستوحش كل حزب من صاحبه، وطلبت قريظة من قريش الرهن، حتي يخرجوا فيقاتلوا معهم، فأبت قريش واتهموهم، واعتلت قريظة بالسبت، وقالوا: لا نقاتل فيه، لأن قوما منا عدوا في السبت فمسخوا قردة وخنازير، فقال أبو سفيان بن حرب: ألا أرانى أستعين بإخوة القردة والخنازير؟ وبعث الله الريح ليلة السبت ففعلت بالمشركين وتركت ، لا تقر لهم بناء ولا قدرا.

موقف حكيم :

وفى قصة نعيم بن مسعود وتخذيله الأحزاب مثل وشواهد [4] من منهج الرسالة الخاتمة، جعلت منها إطارا لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع المسلم إذا تفاقمت به الأزمات ، واستحكمت الشدائد ، وأحاطت به الكوارث، وقاسيات البلايا والمحن، واكتنفته المآزق، وتملكه الرعب والجزع، واستولى عليه الخوف والهلع، واستحوذ عليه الاضطراب والفزع، وسدت فى وجهه أبواب المخارج من المضايق.

وجعلت منه إطارا لما كشفت عنه الأحداث من محكم السياسة التى تصرفت في دائرتها قيادة المجتمع من حسن التدبير، وإحكام الرأي فى كيد الأعداء الذى أخرج في إبانه بعد أن توافرت دواعيه.

---

(١) ابن هشام : ٢ : ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٤ : ١١٢ ـ ١١٣.

(٣) الطبقات الكبري : ٢ : ٦٩.

(٤) محمد رسول الله : ٤ : ١٨٧ بتصرف.

وأول ذلك أن تلجأ القيادة الحكيمة إلى الرأي الرصين الحكيم تستشيره وتوقظه، كما هومعلوم من الأدلة الكثيرة التي تدعو إلى الشورى، ليتحرك في اتجاه النظر في بؤرة المجمعة لقوة الأعداء، ومصادرها وعناصر تركيبها، حتي تتعرف إلى مافيها من شروخ يسترها النفاق والدعاوى الكاذبة، فتعمد إلى كشفها وتسليط سياسة تمزيق الروابط بين عناصر تلك القوة التركيبية، حتى تتفكك وسائل الترابط الزائف بين تلك القوة المتورمة في حشود العدو.

ويسبق ذلك إعداد العناصر القوامة بما يطلب منها في شأن تفريق كلمة العدو، لتؤدى واجبها دون أن يتنبه لها العدو ، مما يوجب أن يؤخذ وهو مستغرق في غفلة الغرور عن تدبير ما يدبر له.

وإذا دلف إلى القيادة عنصر من عناصر الكيد والمكر بالعدو، وجب على القيادة أن تضع هذا العنصر دون شعور منه تحت مخبار التجربة، بعيدا عن جو ما يكلفه من عظائم الأحداث.

وإذا أظهرت التجربة صحة الوضع في هذا العنصر الطارئ وجب على القيادة أن تسرع إلى انتهاز الفرصة المتاحة لاستغلالها في سرعة وإتقان، ومباعدة للشك والاسترابة، مع اليقظة المتوثبة بالمشاعر المرهفة (١) .

وهذا هو الجانب المنهجي في هذه القصة .. الجانب الذي أقيم علي دعائم السياسة الحكيمة المحكمة، التي يجب أن تكون سطرا في دروس التربية للقادة والدعاة في رسالة الإسلام ، فقد بلغت الأمور بالمسلمين المدى من الشدائد والمحن والتأزمات، وكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يترقب الفرج ويستشرفه من آفاق العزة الإلهية ، فأسرع نعيم تدفعه مشاعر الصدق والإخلاص ، يحاول أن يعمل عملا يرفع به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشدائد ، فمضي إلى الأحزاب يكيدهم ويمكر بهم ويخادعهم ، ويلقي بينهم بذور الشك ، فجعل بأسهم بينهم، مع ما أنزل الله تعالى من آيات غيبية معجزة لنبيه ﷺ، من الريح التى أكفأت قدورهم، وهدمت بنيانهم، وشدة البرد التى أهرأت أجسامهم بصقيعها، فترحلوا مدحورين.

---

(١) المرجع السابق : ٢٠١ بتصرف.

« نغزوهم ولا يغزوننا » :

وقد كانت أحداث الأحزاب دروسا تربوية لحياة المجتمع المسلم، [1] التى أقام الرسول الحبيب المحبوب ﷺ دعائمها على الكفاح والنضال،والاستنصار بالله وآياته ، وجنود الحق التى أمد الله بها نبيه ﷺ في جهاده لنشر دعوته، وتبليغ رسالته.

انصرف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بأصحابه بعد رحيل الأحزاب بحشودهم وجموعهم منهزمين أذلة مدحورين، وبشر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أصحابه بأن هذه الغزوة المهاجمة هي آخر غزوات أعداء الله وأعداء رسوله ﷺ ، وأعداء رسالته، التى يغزون فيها المجتمع المسلم.

يروى البخارى عن سليمان بن صرد قال : قال النبى ﷺ يوم الأحزاب :

« **نغزوهم ولا يغزوننا** » .

وفي رواية له عنه أيضا يقول: سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه:

« **الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم** » [2].

يقول ابن حجر : وفيه إشارة إلى أنهم رجعوا بغير اختيارهم، بل بصنع الله تعالى لرسوله ، وذكر الواقدي أنه ﷺ قال ذلك بعد أن انصرفوا ، وذلك لسبع بقين من ذى القعدة، وفيه علم من أعلام النبوة، فإنه ﷺ اعتمر فى السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر أن النبي ﷺ قال يوم الأحزاب ، وقد جمعوا له جموعا كثيرة:

« **لا يغزونكم بعد هذا أبدا ، ولكن أنتم تغزونهم** » [3] .

لمحات من آيات الله :

وقد كان في هذه الغزوة من آيات الله ومعجزاته الكونية أمور كثيرة، أكرم الله بها

(١) المرجع السابق ٢٠١ ، بتصرف.
(٢) البخارى: ٦٤ ـ المغازى (٤١٠٩ ، ٤١١٠).
(٣) فتح البارى : ٧ : ٤٠٥ .

نبيه ﷺ، وحسبنا أن نذكر ما جاء فى كتاب الله تعالى مما لا يمكن أن يحوم حول حماه شىء من الشك من إرسال الريح والجنود ، وما صنعت بجموع الشرك والوثنية من جموع الأحزاب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (١) .

تربية واقعية :

كانت الشخصية المسلمة تصاغ فى معترك الحياة ومصطرع الأحداث، ويوما بعد يوم، وحدثا بعد حدث، كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو، وتتضح سماتها (٢) .

وكانت الجماعة المسلمة التى تتكون من تلك الشخصيات تبرز إلى الوجود بمقوماتها الخاصة ، وقيمها الخاصة، وطابعها المميز بين سائر الجماعات.

وكانت الأحداث تقسو على الجماعة الناشئة، حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب ، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطا مجهول القيم .

وكان القرآن الكريم ينزل في إبان الابتلاء أوبعد انقضائه، يصور الأحداث ، ويلقي الأضواء على منحنياته وزواياه ، فتنكشف المواقف والمشاعر، والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهى مكشوفة في النور عارية من كل رداء وستار، ويلمس فيها التأثر والاستجابة، ويربيها يوما بعد يوم، وحادثا بعد حادث ، ويرتب تأثراتها واستجاباتها وفق منهجه الذي يريد.

ولم يترك المسلمون لهذا القرآن، يتنزل بالأوامر والنواهي، وبالتشريعات والتوجيهات جملة واحدة، إنما أخذهم الله بالتجارب والابتلاءات، والفتن والامتحانات، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية لا تصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجا صحيحا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية، التي تحفر فى القلوب، وتنقش فى الأعصاب، وتأخذ من النفوس، وتعطي فى معترك الحياة، ومصطرع الأحداث.

---

(١) الأحزاب : ٩ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٥ : ٢٨٣١ بتصرف .

أما القرآن الكريم فيتنزل ليكشف لهذه النفوس عن حقيقة ما يقع ودلالته، وليوجه تلك القلوب وهي منصهرة بنار الفتنة، ساخنة بحرارة الابتلاء، قابلة للطرق، مطاوعة للصياغة !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا، تلك التي قضاها المسلمون في حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا، مبلورا فى أحداث وكلمات.

ذلك حين كان يبيت كل مسلم وهو يشعر أن عين الحق عليه، وأن سمع الله إليه، وأن كل كلمة منه، وكل حركة ، بل كل خاطر ، وكل نية ، قد يصبح مكشوفا للناس ، يتنزل فى شأنه قرآن على رسول الله ﷺ.

وحين كان كل مسلم يحسّ الصلة المباشرة بينه وبين ربه، فإذا حزبه أمر، أو واجهته معضلة ، انتظر أن تفتح أبواب السماء ليتنزل منها حل لمعضلته، وبيان فى أمره، وقضاء في شأنه. وياله من أمر هائل عجيب !

لقد كانت فترة عجيبة حقا، يتملاها الإنسان اليوم، ويتصور حوادثها ومواقفها ، وهو لا يكاد يدرك كيف كان ذلك الواقع !

ولكن الله عز وجل لم يدع المسلمين لهذه المشاعر وحدها تربيهم ، وتنضج شخصيتهم المسلمة .. بل أخذهم بالتجارب الواقعية، والابتلاءات التى تأخذ منهم وتعطى، وكل ذلك لحكمة يعلمها ، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

هذه الحكمة تستحق أن نقف أمامها طويلا، ندركها ونتدبرها، ونتلقى أحداث الحياة وامتحاناتها على ضوء ذلك الإدراك وهذا التدبير.

والقرآن الكريم يصور نماذج البشر وأنماط الطباع، ليصور القيم الثابتة والسنن الباقية.. هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص،ولا تنقضي بانقضاء الملابسات .. ومن ثم تبقي قاعدة ومثلا لكل جيل ولكل قبيل.. ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، وتظهر فيها يد الحق القادر وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير.

ومع أنه كان يقص القصة على الذين عاشوها، وشهدوا أحداثها، فإنه كان يزيدهم بها خبرا ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها !

ويُلقي الأضواء على سراديب النفوس، ومنحنيات القلوب ، ومخبآت الضمائر ويكشف للنور الأسرار والنوايا ، والخوالج المستكنة في أعماق الصدور .. ذلك إلى جمال التصوير ، وقوته وحرارته ، مع التهكم القاصم ، والتصوير الساخر للجبن والخوف، والنفاق والتواء الطباع !

ومع الجلال الرائع، والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين..

إن القرآن الكريم معد للعمل، لا فى وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب .. ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك ، وفي كل تاريخ ..

معد للعمل في النفس البشرية إطلاقا كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة ، والبيئات المنوعة. بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى .

ولا يفهم القرآن حق الفهم إلا من يواجه مثل الظروف التي واجهتها النصوص أول مرة.

هنا تتفتح تلك النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة.

وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات .. وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها .. تنتفض خلائق حية، موحية ، دافعة ، دافقة ، تعمل فى واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، فى عالم الواقع ، وعالم الضمير ..

إن القرآن ليس كتابا للتلاوة ولا للثقافة .. وكفى .. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة، وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة، متي وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب، ووجد الظرف الذى يطلق الطاقة المكنونة فى تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ، ثم يقف الموقف، أويواجه الحادث ،

فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر، ويفتي فى المشكلة المعقدة، ويكشف الطريق الخافى ، ويرسم الاتجاه القاصد، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم فى الأمر الذى يواجهه، وإلى الاطمئنان العميق..

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث ..

« اذكروا نعمة الله عليكم » :

ويبدأ السياق القرآني الحديث عن حادث الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم أن رد عنهم الجيش الذى همَّ أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف.

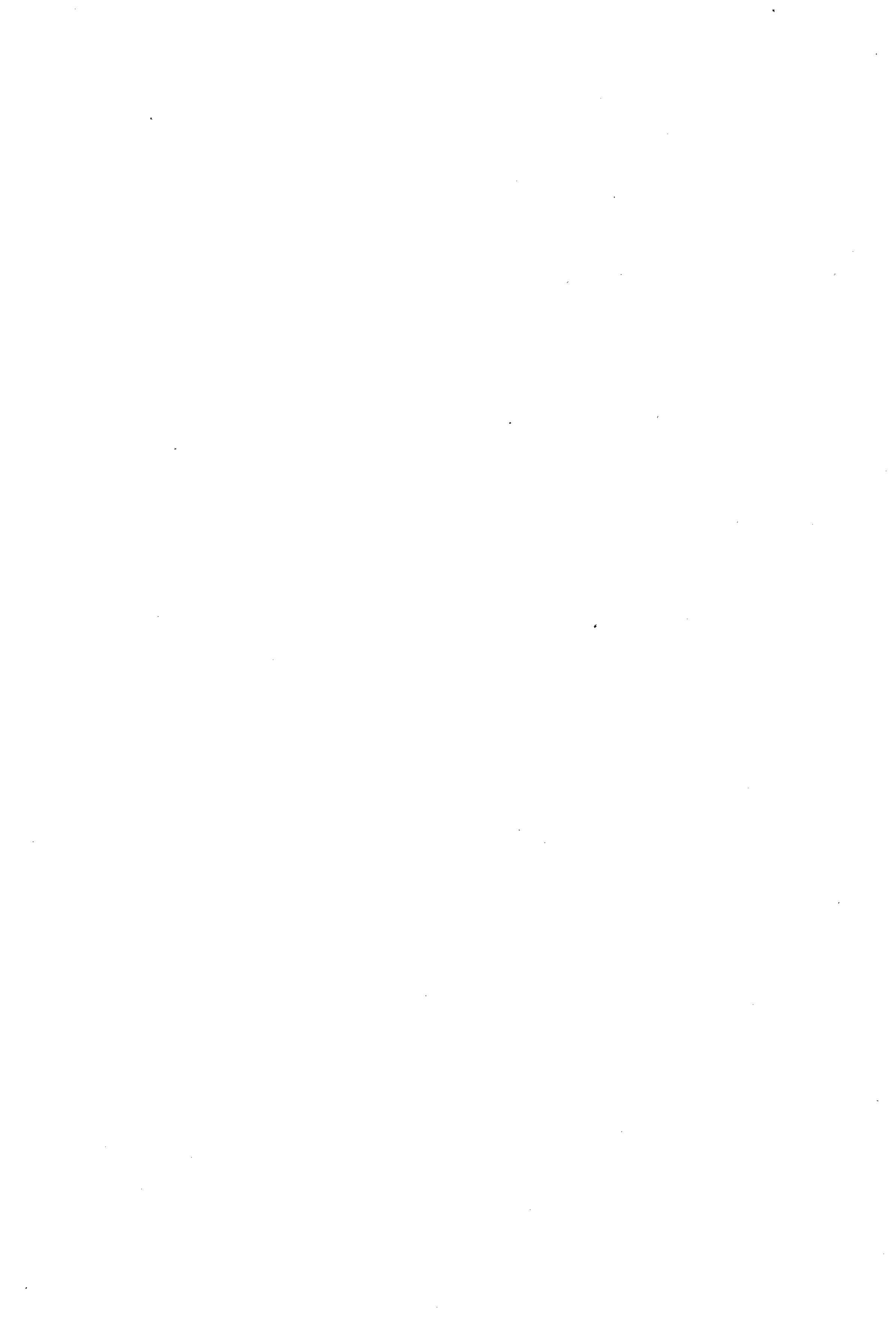
ومن ثم يجمل طبيعة ذلك الحادث، وبدءه ونهايته، قبل تفصيله وعرض مواقفه - كما سبق - لتبرز نعمة الله التى يذكرهم بها ، ويطلب إليهم أن يتذكروها، وليظهر أن الله الذى يأمر المؤمنين باتباع وحيه ، والتوكل عليه وحده ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، هو الذى يحمى القائمين على دعوته ومنهجه ، من عدوان الكافرين والمنافقين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

وهكذا يرسم فى هذه البداءة المجملة بدء المعركة وختامها، والعناصر الحاسمة فيها .. مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون ، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم، وبصره بعملهم..

ثم يأخذ بعد هذا الإجمال في التفصيل والتصوير ..

وسبق أن تحدثنا عن عظم البلاء ، وموقف المنافقين وخصائصهم المستمدة من خصائص اليهود !



الفصل الثانى

فى الطريق إلى بنى قريظة

نقض العهد ـ الأمر بالخروج ـ الجمع بين الروايتين ـ من فقه الحديث ـ أيهما كان أصوب ؟ ـ تأخير الصلاة ـ احترام وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد ـ أمير المدينة ـ عليّ يحمل الراية ـ طبيعة اليهود ـ محاولة إنقاذ الموقف ـ صورة وضيئة ـ « خير أمة » ـ ترغيب أهل الكتاب فى الإيمان ـ « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » ـ «ثم لا ينصرون»ـ المعصية والاعتداء ـ « ليسوا سواء » ـ عمرو بن سعد القرظي ـ مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم ـ يهودية تقتل مسلما ـ رئيس بنى قريظة ينصح قومه ـ الوقت والمباغتة ـ محاولة اليهود الأخيرة ـ أهل أبى لبابة وأمواله فيهم ـ أبو لبابة يربط نفسه في المسجد ـ توبة أبى لبابة ـ تحذير وتذكير .

نقض العهد :

سبق أن عرفنا أن طوائف الكفار، وفي المقدمة هؤلاء اليهود ، قد أيقنوا أن هدفهم لن يكسب ضمانه النهائي إلا إذا حاولوا جاهدين جمع أعداء الحق معهم، ومن ثم كان غدر بني قريظة، وكان تأليب أحزاب الكفر على الرسالة والرسول ﷺ.. وكان أن عرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا ـ على عجل ـ الخطة التى يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم ، وكانت خطة فريدة ، لم تسمع العرب من قبل بمثلها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة .. وكان أن انقضت حشود الأحزاب حول المدينة (١) ، وعادت المطي بها ، من حيث أتت ، تذرع رحاب الصحراء، وليس تحمل معها إلا الفشل، والخيبة، وبقى يهود قريظة وحدهم، وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم، وكشفت نواياهم، فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته، فهو يرقب بوجه كالح قصاص العدالة منه!

وكانت مشاعرا التغيظ فى أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجا، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها !

إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال ، لمَّا تندمل بعد، بل لن تندمل أبدا، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل ؟ !

ثم ما الذى يجعل بنى قريظة خاصة ـ وهم لم يروا فى جوار الرسول إلا البر والوفاء ـ يستديرون بأسلتحهم، منضمين إلى أعداء الإسلام ـ كما عرفنا ـ كى يشركوهم فى قتل المسلمين وسلبهم ؟ !

وها قد دخل في حصونهم حيي بن أخطب رأس العصابة التي طافت بمكة، ونجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد !

الأمر بالخروج :

وما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة، حتى كان التوجه إلى بنى

(١) فقه السيرة : ٣٠٩ بتصرف.

قريظة، وذلك فيما رواه الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت : **أصيب سعد يوم الخندق . رماه رجل من قريش يقال له حِبَّان بن العَرِقَة ، رماه في الأَكْحَل، فضرب النبى ﷺ خيمة في المسجد ، ليعوده من قريب. فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، ووضع السلاح واغتسل ، فأتاه جبريل عليه السلام ، وهو ينفض رأسه من الغبار. فقال: قد وضَعْتَ السلاح ؟ والله ! وماوضعْتُه ، اخرج إليهم. قال النبى ﷺ : « فأين ؟ » فأشار إلى بنى قريظة. فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه ، فرد الحكم إلى سعد . قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم.**

قال هشام : فأخبرني أبى عن عائشة أن سعدا قال :

اللهم !! إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه. اللهم ! فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني له ، حتى أجاهدهم فيك ، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتي فيها.

فانفجرت من لبته . فلم يَرعْهم ـ وفى المسجد خيمة من بنى غفار ـ إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ؟

فإذا سعد يغذو جرحه دما، فمات منها رضى الله عنه [١] .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبىﷺ يوم الأحزاب :

« لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحداً منهم [٢] .

---

(١) البخاري ٦٤ ـ المغازي (٤١٢٢) واللفظ له، ومسلم :٣٢ ـ الجهاد ٦٥ ـ ٦٧ (١٧٦٩) .

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازي (٤١١٩) .

وروا‌ه مسلم عن عبد الله قال: نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب:

« أن لايصلين أحد الظهر إلا فى بنى قريظة » .

فتخوف ناس فوْت الوقت. فصلوا دون بني قريظة. وقال آخرون: لا نصلّي إلا حيث أمرنا رسول اللّه ﷺ ، وإن فاتنا الوقت. قال: فما عنّف واحدا من الفريقين [١] :

وروى البيهقى فى الدلائل بإسناد صحيح إلى الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن كعب بن مالك، عن عمه عبيد الله بن كعب، أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ، وجمع عليه اللأْمة، واغتسل واستجمر، تبدّى له جبريل فقال :[٢]

عذيرك من محارب ! فوثب فزعا، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا بنى قريظة ، قال فلبس الناس السلاح ، فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ، قال فاختصموا عند غروب الشمس ، فصلت طائفة العصر ، وتركتها طائفة ، وقالت : إنا في عزمة رسول الله ﷺ ، فليس علينا إثم ، فلم يعنِّف واحدا من الفريقين.

وأخرجه الطبراني من هذا الوجه موصولا بذكر كعب بن مالك فيه، وللبيهقى من طريق القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها نحوه مطولا، وفيه: « فصلت طائفة إيمانا واحتسابا، وتركت طائفة إيمانا واحتسابا » .

الجمع بين الروايتين :

ونجد أنفسنا أمام ذكر أقوال العلماء في الجمع بين الروايتين، حيث ورد لفظ «العصر» في جميع النسخ عند البخارى، وورد لفظ «الظهر» في جميع النسخ عند مسلم، مع اتفاق البخاري ومسلم على روايته عن شيخ واحد بإسناد واحد ـ كما يقول ابن حجر [٣] ـ وقد وافق مسلما أبو يعلى وآخرون، وكذلك أخرجه ابن سعد عن أبى عتبان مالك بن إسماعيل عن جويرية بلفظ «الظهر» وابن حبان من طريق أبي عتبان [٤] كذلك ، ولم أره من رواية جويرية إلا بلفظ «الظهر» غير أن أبا نعيم فى «المستخرج» أخرجه من طريق أبى

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦٩ (١٧٧٠).

(٢) فتح البارى : ٧ : ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) فى هامش طبعة بولاق. فى نسخة « أبى غسان » .

حفص السلمى عن جويرية فقال « العصر » .

وأما أصحاب المغازي فاتفقوا على أنها «العصر».

وقال ابن حجر عقب رواية البيهقي وغيره: وهذا كله يؤيد رواية البخاري في أنها «العصر»، وقد جمع بعض العلماء بين الروايتين باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى «الظهر»، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها لا يصلين أحد «الظهر» ولمن صلاها لا يصلين أحد «العصر».

وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم راحت بعد طائفة، فقيل للطائفة الأولى «الظهر» وقيل للطائفة الثانية التى بعدها «العصر».

وكلاهما لا بأس به، لكن يبعده اتحاد مخرج الحديث، لأنه عند الشيخين كما بيناه بإسناد واحد من مبدئه إلى منتهاه، فيبعد أن يكون كل من رجال إسناده قد حدث به على الوجهين، إذ لو كان كذلك لحمله واحد منهم عن بعض رواته على الوجهين ، ولم يوجد ذلك.

ثم تأكد عندى أن الاختلاف في اللفظ المذكور من حفظ بعض رواته، فإن سياق البخاري وحده مخالف لسياق كل من رواه عن عبدالله بن محمد بن أسماء، وعن عمه جويرية..

فالذي يظهر من تغاير اللفظين أن عبد الله بن محمد بن أسماء شيخ الشيخين فيه لما حدث به البخاري حدث به على هذا اللفظ، ولما حدث به الباقين حدثهم به على اللفظ الأخير، وهو اللفظ الذى حدث به جويرية، بدليل موافقة أبي عتبان له عليه، بخلاف اللفظ الذي حدث به البخارى، أو أن البخاري كتبه من حفظه ولم يراع اللفظ، كما عرف من مذهبه في تجويز ذلك، بخلاف مسلم فإنه يحافظ على اللفظ كثيرا، وإنما لم أجوز عكسه لموافقة من وافق مسلما على لفظه، بخلاف البخاري ، لكن موافقة أبى حفص السلمى له تؤيد الاحتمال الأول، وهذا كله من حديث ابن عمر.

أما بالنظر إلى حديث غيره فالاحتمالان المتقدمان في كونه قال «الظهر» لطائفة، و«العصر» لطائفة متجهة، فيحتمل أن تكون رواية « الظهر» هى التى سمعها ابن عمر، ورواية «العصر» هى التى سمعها كعب بن مالك وعائشة.

من فقه الحديث :

قال السهيلى وغيره: فى هذا الحديث من الفقه أنه لايعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية، ولا على من استنبط من النص معنى يخصصه، ومنه أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب.

قال السهيلى : ولا يستحيل أن يكون الشيء صوابا في حق إنسان وخطأ فى حق غيره، وإنما المحال أن يحكم فى النازلة بحكمين متضادين فى حق شخص واحد.

قال: والأصل فى ذلك أن الحظر والإباحة صفات أحكام لا أعيان.

قال: فكل مجتهد وافق اجتهاده وجها من التأويل فهو مصيب.

قال ابن حجر: والمشهور أن الجمهور ذهبوا إلى أن المصيب في القطعيات واحد ..

ثم قال: وأما ما لا قطع فيه فقال الجمهور أيضا: المصيب واحد وقد نقل ذلك الشافعي وقرره، ونقل عن الأشعري أن كل مجتهد مصيب، وأن حكم الله تابع لظن المجتهد. وقد قال بعض الحنفية وبعض الشافعية: هو مصيب باجتهاده، وإن لم يصب ما فى نفس الأمر فهو مخطئ ، وله أجر واحد ..

ثم الاستدلال بهذه القصة على أن كل مجتهد مصيب على الإطلاق ليس بواضح ، وإنما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه واجتهد، فيستفاد منه عدم تأثيمه.

وحاصل ما وقع في القصة أن بعض الصحابة حملوا النهى على حقيقته، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحا للنهى الثانى على النهى الأول ، وهو ترك تأخير الصلاة عن وقتها، واستدلوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب، بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق، فقد روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، جعل يَسبُّ كفار قريش، وقال: يا رسول الله! ما كدت أن أصلى حتي كادت الشمس أن تغرب. قال النبى ﷺ :

« والله ! ما صلَّيتُها » .

فنزلنا مع النبى ﷺ بُطْحان ، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم

صلى بعدها المغرب [1].

وفي رواية لهما عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق :

«ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى ، حتى غابت الشمس » [2] .

قال ابن حجر: [3] وذلك لشغلهم بأمر الحرب، فجوزوا أن يكون ذلك عاما فى كل شغل يتعلق بأمر الحرب، ولا سيما والزمان زمان التشريع.

والبعض الآخر حملوا النهى على غير الحقيقة، وأنه كناية عن الحث والاستعجال والإسراع إلى بنى قريظة.

وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد ، لأنه ﷺ لم يعنِّف أحدا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنّف من أثم ، واستدل به ابن حبان على أن تارك الصلاة حتى يخرج وقتها لا يكفر، وفيه نظر لايخفى.

واستدل به غيره على جواز الصلاة على الدواب في شدة الخوف، وفيه نظر قد أوضحته في باب صلاة الخوف.

وعلى أن الذى يتعمد تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها يقضيها بعد ذلك، لأن الذين لم يصلّوا العصر صلّوها بعد ذلك، كما وقع عند ابن إسحاق أنهم صلّوها في وقت العشاء، وعند موسى بن عقبة أنهم صلّوها بعد أن غابت الشمس وكذلك في حديث كعب بن مالك، وفيه نظر أيضا؛ لأنهم لم يؤخروها إلا لعذر تأولوه، والنزاع إنما هو فيمن أخر عمدا بغير تأويل.

وأغرب ابن المنير فادّعى أن الطائفة الذين صلّوا العصر لما أدركتهم في الطريق إنما صلّوها وهم على الدواب، واستندوا إلى أن النزول إلى الصلاة ينافي مقصود الإسراع في الوصول، قال: فإن الذين لم يصلّوا عمدوا بالدليل الخاص، وهو الأمر بالإسراع ، فترك عموم إيقاع العصر في وقتها إلى أن فات ، والذين صلّوا جمعوا بين دليلي وجوب الصلاة

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازي (٤١١٢)، ومسلم : ٥ ـ المساجد ٢٠٩ (٦٣١) .

(٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازي (٤١١١)، ومسلم : ٥ ـ المساجد ٢٠٢ (٦٢٧) .

(٣) فتح البارى : ٧ : ٤١٠ .

ووجوب الإسراع فصلوا ركبانا، لأنهم لو صلّوا نزولا لكان مضادة لما أمروا به من الإسراع، ولا يظن ذلك بهم، مع تقرب أفهامهم.

قال ابن حجر: وفيه نظر ، لأنه لم يصرح لهم بترك النزول ، فلعلهم فهموا أن المراد بأمرهم أن لا يصلّوا العصر إلا في بني قريظة المبالغة في الأمر بالإسراع، فبادروا إلى امتثال أمره، وخصوا وقت الصلاة من ذلك، لماتقرر عندهم من تأكيد أمرها، فلا يمتنع أن ينزلوا فيصلّوا ، ولا يكون فى ذلك مضادة لما أمروا به، ودعوى أنهم صلّوا ركبانا يحتاج إلى دليل، ولم أره صريحا فى شىء من طرق هذه القصة.

أيهما كان أصــوب ؟ :

قال ابن القيم: اختلف الفقهاء أيهما كان أصوب ؟ (١) .

فقالت طائفة : الذين أخروها هم المصيبون ، ولو كنا معهم لأخرناها كما أخروها، ولما صلينا إلا فى بنى قريظة امتثالا لأمره، وتركا للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلّوها في الطريق في وقتها حازوا قصب السبق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره فى الخروج ، وبادروا إلى مرضاته فى الصلاة فى وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة فى وقتها، وفهموا مايراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين ، ولا سيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصريح، الذي لا مدفع له ، ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن من فاتته فقد وتر أهله وماله، أو قد حبط عمله، (٢) فالذى جاء فيها أمر لم يجيء مثله فى غيرها .

وأما المؤخرون لها فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجرا واحدا، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر.

وأما أن يكونوا هم المصيبين في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئا،فحاشا وكلا، والذين صلّوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين، فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضا رضى الله عنهم.

---

(١) زاد المعاد:٣ : ١٣١ بتصرف.

(٢) انظر: البخارى: ٩ ــ مواقيت الصلاة (٥٥٢، ٥٥٣)، ومسلم : ٥ ــ المساجد: ٢٠٠ ، ٢٠١ (٦٢٦).

تأخير الصلاة :

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزا مشروعا، ولهذا كان عقب تأخير النبى ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل ، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولا سيما أن ذلك كان قبل شروع صلاة الخوف.

قيل: هذا سؤال قوى، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزا بعد بيان المواقيت، ولادليل على ذلك إلا قصة الخندق، فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبى ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسيانا، وفي القصة ما يشعر بذلك ، فإن عمر لما قال له فى الحديث السابق الذى رواه الشيخان : يا رسول الله! ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، قال النبى ﷺ :

« **والله ! ما صليتها** » .

فنزلنا مع النبي ﷺ بُطحان، فتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

قال: وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسيا بما هو فيه من الشغل، والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخّرها بعذر النوم في سفره، وصلاها بعد استيقاظه،وبعد ذكره ، لتتأسى أمته به.

والجواب الثانى: أن هذا على تقدير ثبوته إنما هو فى حال الخوف والمسايفة عند الدهش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة فى مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده، ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف قوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم ، فهذا منتهى أقدام الفريقين في هذا الموضع [1] .

احترام وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد :

وعلى كل فإن ذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن

---

(١) انظر تفصيل القول في ذلك : طرح التثريب في شرح التقريب: ٣ : ١٣٠ وما بعدها.

اجتهاد برىء سليم [1]، والناس غالبا أحد رجلين :

رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها .

ورجل يتبين حكمتها، ويستكشف غايتها، ثم يتصرف فى نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها، ولو خالف الظاهر القريب .

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، ومن ثم صلت طائفة إيمانا واحتسابا ، وتركت طائفة إيمانا واحتسابا ـ كما سبق في رواية البيهقى من طريق القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ـ سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه.

ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال، قال البخارى : [2] قال الأوزاعى : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلّوا إيماء، كلّ امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة، حتى ينكشف القتال، أو يأمنوا فيصلّوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلّوا ركعة وسجدتين لا يجزئهم التكبير، ويؤخروها حتى يأمنوا، وبه قال مكحول. وقال أنس: حضرت عند مناهضة حِصْنِ تُسْتَر عند إضاءة الفجر ـ واشتد اشتعال القتال ـ فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبى موسى، فَفُتح لنا. وقال أنس: وما يسرُّني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها [3].

وإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم فى الحياة ، بل إنه لا يفهم دينه فهما صحيحا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب.

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى، فيها الفرائض وفيها النوافل.

ولابد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتي تؤدي الفريضة، فالرجل الذى يستكثر من أعمال التطوع فى الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال.

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم.

وكما أن الجسم لا يقوم إلا على استكمال جمل منوعة من الغذاء، وإلا تعرض الجسم

---

(١) فقه السيرة : ٣١١ بتصرف.

(٢) البخارى : ١٢ ـ الخوف ٤ ـ باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو.

(١) انظر: فتح البارى : ٢ : ٤٣٤ وما بعدها.

لعلل قد تنهكه أو تقتله، فكذلك الدين ، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو فى صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض المطلوبة، تصون حياته، وتضمن عافيته ونماءه.

وعلى المسلم أن يقسم وقته، وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة، فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب !

وقد رأى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم، ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة، فقال ـ كما سبق في رواية البخارى:

« لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » .

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلى ، لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فلم يعنف واحدا منهم.

وحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال.

وتستطيع ـ على ضوء هذا الإرشاد النبوي ـ أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم..

إن المدرس الذى ينشغل عن تعاليم تلاميذه، والتاجر الذى ينشغل عن تثمير ثروته، والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله، لا يقبل الله من أحدهم عذرا أبدا في تضييع هذه الفرائض ، ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة، أو قرأ ألف آية، أو عدّ أسماءالله الحسنى سبعين ألف مرة، كما يفعل الكثيرون !

ذلك أنه انشغاله عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها !

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء ، ولا يزاحمها على وقتها عبادة كما رأيت.

أمير المدينـــة :

ولما كانت منازل بني قريظة الواقعة جنوب شرقي المدينة ، تبعد عن المدينة عدة أميال، فقد استخلف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم، حتى يفرغ من أمر

بنى قريظـة [1].

عليّ يحمل الراية :

وحمل راية المسلمين إلى حصون قريظة عليّ بن أبي طالب [2] ، واستبق المسلمون يحتشدون حولها، حتى إذا اقترب الجيش من منازل اليهود كان القوم لا يزالون على غوايتهم ، فقد نظروا إلى المسلمين ، وعلموا أنها الحرب ولا شيء سواها.

طبيعة اليهـــود :

هنا اندفعوا في ليونة الأفاعي ـ كما هو معلوم من الروايات الكثيرة ـ يظهرون الكلام المغلّف حين العجز، [3] وتلك هي جبلة اليهود، وطبيعتهم المتغلغلة في نفوسهم أبد الدهر .. لا يتورعون عن ارتكاب أية جـريمة مهما كانت بشاعتها إذا ما قدروا ، ولا يخجلون من أن يقفوا موقف الذلة والمهانة إذا ما أحاطت بهم خطيئتهم وأدركهم الوهـن !

ولكنهم نسوا أو تناسَوْا أنهم قد ضربوا بكل القيم الإنسانية، والمثل الأخلاقية عرض الحائط، وداسوا العهد والمواثيق بأرجلهم في خسة ونذالة ، عندما رأوا جيوش الأحزاب الجرارة تحيط بالقلة المسلمة إحاطة البحر الهائج بالجزيرة الصغيرة من كل جانب.. ومن ثم أعلنوا الترحيب بهذه الجيوش الغازية الباغية الطاغية ـ كما أسلفنا ـ وأعلنوا الانضام إليها ضد المسلمين الذين تربطهم بهم رابطة معاهدة !

نعم، تناسى هؤلاء اليهود أنهم لم يكتفوا في تلك اللحظات الحرجة بمخالفة نصوص تلك المعاهدة بتوقفهم عن المساندة، بل أنكروا في وقاحة وصفاقة أن يكون بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أى عهد !

نعم نسي هؤلاء اليهود الذين يطلبون الرحمة الآن، أن جوابهم كان مناقضا للعهد !

نعم، تناسى هؤلاء اليهود أنهم في الوقت الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الحصار، قد تفجرت فى نفوسهم ينابيع الخسة والغدر، فاغتنموا اشتداد محنة

---

(١) انظر: الطبقات : ٢ : ٧٤ ، وزاد المعاد : ٣ : ١٣٣ ، والبداية : ٤ : ١١٦.

(٢) انظر: المراجع السابقة.

(٣) غزوة بني قريظة ١٦٨ وما بعدها بتصرف.

المسلمين فسارعوا إلى إحكام حلقاتها، فانضموا إلى جيوش الغزاة، بالرغم من العهد الذى بينهم وبين المسلمين، مستهدفين بعملهم الدنيء هذا استعجال إبادة المسلمين ومحو كيانهم من الوجود، ظنا منهم أن تلك الأيام العصيبة هى الأيام الأخيرة للكيان الإسلامي الذي كان هؤلاء اليهود يعتقدون أن جيوش الأحزاب الغازية لن تعود إلى بلادها إلا بعد تحطيم هذا الكيان.

والآن وقد دحر الله جيوش الأحزاب الغازية الطاغية الباغية وتبددت الأحلام العريضة التي كانت تحملها قريظة، وجاءت كتائب الحق لتصفي الحساب مع هؤلاء الخونة الغادرين الناكثين، أخذت الأفاعى السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة،وتبدي مظهرها الناعم اللين.

هكذا وقفت قريظة الغدر والخيانة عندما أحاطت بها خطيئتها، وحاق بها مكرها السيىء ، فوجدت حصونها الشامخة غارقة في بحر متلاطم من جند الحق الذين بلغت فى نفوسهم مشاعر الغيظ حد الغليان على هؤلاء اليهود، الذين ما كانوا ليترددوا لحظة واحدة في سحق المسلمين سحقا كاملا لو تمكنوا من ذلك، فقد كان هذا غاية مرادهم عندما نقضوا الحلف، وخانوا العهد، ولكن الله غالب على أمره، فقد أبى إلا أن ينصر عبده، ويعز جنده، ويهزم الأحزاب وحده.

فهاهم اليهود من قريظة الخائنة الغادرة يتعثرون في دروب الحسرة والندامة، ويسيرون نحو المصير المرعب الذى أرادوه للمسلمين، وسعوا جهدهم للدفع بهم إليه:

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾(١).

محاولة إنقاذ الموقف:

ومع كل هذا نجد العقلاء ـ وهم قلة ـ قد حذروا قومهم من مغبة الكفر بالرسالة والرسول ﷺ وفيما رواه ابن السكن من طريق سعيد بن بزيع عن ابن إسحاق، قال: (٢) حدثني عاصم.. أن شيخا من بني قريظة حدثه أن إسلام ثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية، وأسد بن عبيد، إنما كان عن حديث ابن الهيبان، فذكر قصته بطولها، وأنه كان يعلمهم

(١) فاطر: ٤٣. (٢) الإصابة: ١: ٣١ بتصرف، وانظر: ميزان الاعتدال: ٢: ٣٥٥.

بقدوم النبي ﷺ قبل الإسلام، فلما كان الليلة التي كان في صبحها فتح قريظة، قال لهم هؤلاء الثلاثة:

يا معشر يهود، إنه والله للرجل الذى كان وصف لنا ابن الهيبان، فاتقوا الله واتبعوه، فأبوا عليهم ، فنزل الثلاثة إلى النبى ﷺ فأسلموا .

ورواه أيضا من طريق يحيى بن محمد بن عباد الشجرى، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عمر، عن سعيد بن المسيب، عن جابر، والإسناد الأول أقوى .

ورواه الطبرى (١)، وابن مندة من طريق أخرى، عن ابن إسحاق، عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وأسد أو أسيد بن سعية، قالت يهود: ما أتى محمدا إلا شرارنا، فأنزل الله تعالى :

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢).

ورواه الطبرانى ورجاله ثقات عن ابن عباس ، وفيه : قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عز وجل :

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾

إلى قوله تعالى : ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣).

صورة وضيئة:

وتلك صورة وضيئة للمؤمنين من هؤلاء. فقد آمنوا إيمانا صادقا، وكاملا شاملا، وانضموا للصف المسلم،وقاموا على حراسة هذا الدين.. آمنوا بالله واليوم الآخر.. وقد

---

(١) انظر : تفسير الطبرى: ٤:٥٢ ـ ٥٣. (٢) آل عمران : ١١٣ ـ ١١٤.

(٣) مجمع الزوائد: ٦:٣٢٧ وفيه« ثعلبة بن شعبة» بدل « ثعلبة بن سعية».

نهضوا بتكاليف الإيمان، وحققوا سمة الأمة المسلمة التى انضموا إليها:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۝١١٠ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١١١ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾(١).

والتعبير بكلمة« أخرجت» المبنى لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر(٢)، وهو يكاد يشى باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله..

إنها كلمة تصور حركة خفيفة المسرى، لطيفة الدبيب.. حركة تخرج على مسرح الوجود أمة.. أمة ذات دور خاص، لها مقام خاص ولها حساب خاص..

« خيـــر أمـــة » :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

وهذا ما ينبغى أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هى خير أمة.

والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر فى هذه الأرض.. ومن ثم لا ينبغى لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية.. إنما ينبغى دائما أن تعطى هذه الأمم مما لديها.. وأن يكون لها دائما ما تعطيه.. من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذى يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها .. واجبها أن تكون فى الطليعة دائما، وفى مركز القيادة دائما.. ولهذا المركز

---

(١) آل عمران: ١١٠ ــ ١١٢.

(٢) فى ظلال القرآن : ١:٤٤٧ بتصرف.

تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء، ولا يسلم لها به إلا أن تكون هى أهلا له .. وهى بتصورها الاعتقادى، وبنظامها الاجتماعى أهل له.. فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمى، وبعمارتها للأرض ـ قياما بحق الخلافة ـ أهلا له كذلك..

ومن هذا يتبين أن المنهج الذى تقوم عليه هذه الأمة يطالبها بالشىء الكثير، ويدفعها إلى السبق فى كل مجال.. لو أنها تتبعه وتلتزم به، وتدرك مقتضياته وتكاليفه..

وفى أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد. وأن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى خير أمة أخرجت للناس.. لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف ـ تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا ـ وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون:

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ (1).

كلا! إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر:

﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾

فهو النهوض بتكاليف الأمة الخيرة، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، وبكل ما فى طريقها من أشواك..

إنه التعرض للشر، والتحريض على الخير، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد.. وكل هذا متعب شاق، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته، ولتحقيق الصورة التى يحب الله أن تكون عليها الحياة ..

ولا بد من الإيمان بالله ليوضع الميزان الصحيح للقيم، والتعرف الصحيح للمعروف والمنكر،، فإن اصطلاح الجماعة وحده لا يكفى. فقد يعم الفسادحتى تضطرب الموازين وتختل. ولا بد من الرجوع إلى تصور ثابت للخير والشر، وللفضيلة والرذيلة، وللمعروف والمنكر، يستند إلى قاعدة أخرى غير اصطلاح الناس فى جيل من الأجيال..

وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصور للوجود وعلاقته بخالقه، وللإنسان وغاية وجوده

---

(1) المائدة: ١٨.

ومركزه الحقيقى فى هذا الكون..

ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية.. ومن الباعث على إرضاء الله وتوقّى غضبه يندفع الناس لتحقيق هذه القواعد.. ومن سلطان الله فى الضمائر، وسلطان شريعته فى المجتمع، تقوم الحراسة على هذه القواعد كذلك..

ثم لا بد من الإيمان أيضا ليملك الدعاة إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، أن يمضوا فى هذا الطريق الشاق، ويحتملوا تكاليفه.. وهم يواجهون طاغوت الشر فى عنفوانه، ويواجهون طاغوت الشهوة فى عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع.. وزادهم هو الإيمان، وعدتهم هى الإيمان، وسندهم هو الله.. وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد. وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفَلُّ، وكل سند غير سند الله ينهار!

ترغيب أهل الكتاب فى الإيمان :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

وهو ترغيب لأهل الكتاب فى الإيمان. فهو خير لهم.. فى هذه الدنيا، يستعصمون به من الفرقة والهلهلة التى كانوا عليها فى تصوراتهم الاعتقادية، والتى ما تزال تحرمهم تجمع الشخصية. إذ تعجز هذه التصورات عن أن تكون قاعدة للنظام الاجتماعى لحياتهم،فتقوم أنظمتهم الاجتماعية ـ من ثم ـ على غير أساس، عرجاء أو معلقة فى الهواء ككل نظام اجتماعى لا يقوم على أساس اعتقادى شامل، وعلى تفسير كامل للوجود، ولغاية الوجود الإنسانى، ومقام الإنسان فى هذا الكون.. وخير لهم فى الآخرة، يقيهم ماينتظر غير المؤمنين من مصير.

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » :

ثم هو بيان كذلك لحالهم، لا يبخس الصالحين حقهم :

﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

وقد آمن من أهل الكتاب جماعة وحسن إسلامهم ـ كما أسلفنا ـ وإلى هؤلاء

هنا بالإجمال.. أما الأكثرون فقد فسقوا عن دين الله، حين لم يفوا بميثاق الله مع النبيين: أن يؤمن كل منهم بأخيه الذى يجيء بعده، وأن ينصره.. وفسقوا عن دين الله، وهم يأبون الاستسلام لإرادته فى إرسال آخر الرسل من غير بنى إسرائيل، واتباع هذا الرسول وطاعته، والاحتكام إلى آخر شريعة من عند الله، أرادها للناس أجمعين..

« ثم لا ينصـــرون » :

ولما كان بعض المسلمين ما يزالون على صلات منوعة باليهود فى المدينة، ولما كانت لليهود حتى ذلك الحين قوة ظاهرة: عسكرية واقتصادية يحسب حسابها بعض المسلمين، فقد تكفل القرآن بتهوين شأن هؤلاء الفاسقين فى نفوس المسلمين، وإبراز حقيقتهم الضعيفة، بسبب كفرهم وجرائمهم وعصيانهم، وتفرقهم شيعا وفرقا، وما كتب الله عليهم من الذلة والمسكنة:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

بهذا يضمن الله للمؤمنين النصر وسلامة العاقبة، ضمانة صريحة حيثما التقوا بأعدائهم هؤلاء، وهم معتصمون بدينهم وربهم فى يقين:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

فلن يكون ضررا عميقا ولا أصيلا يتناول أصل الدعوة، ولن يؤثر فى كينونة الجماعة المسلمة، ولن يجليها من الأرض..إنماهو الأذى العارض فى الصدام، والألم الذاهب مع الأيام ... فأما حين يشتبكون مع المسلمين فى قتال، فالهزيمة مكتوبة عليهم ـ فى النهاية ـ والنصر ليس لهم على المؤمنين.. ذلك أنه قد«ضربت عليهم الذلة» وكتبت عليهم مصيرا. فهم فى كل أرض يذلون، لا تعصمهم إلا ذمة الله وذمة المسلمين ـ حين يدخلون فى ذمتهم فتعصم دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وتنيلهم الأمن والطمأنينة .. ولم تعرف يهود منذ

ذلك الحين الأمن إلا فى ذمة المسلمين! ولكن يهود لم تعاد أحدا فى الأرض عداءها للمسلمين!

﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

كأنما رجعوا من رحلتهم يحملون هذا الغضب..

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾

تعيش فى ضمائرهم، وتكمن فى مشاعرهم..

ولقد وقع ذلك كله بعد نزول هذه الآية. فما كانت معركة بين المسلمين وأهل الكتاب إلا كتب الله فيها للمسلمين النصر ـ ما حافظوا على دينهم، واستمسكوا بعقيدتهم، وأقاموا منهج الله فى حياتهم ـ وكتب لأعدائهم المذلة والهوان، إلا أن يعتصموا بذمة المسلمين، أو أن يتخلى المسلمون عن دينهم.

المعصية والاعتداء:

ويكشف القرآن عن سبب هذا القدر المكتوب على يهود..فإذا هو سبب عام يمكن أن تنطبق آثاره على كل قوم، مهما تكن دعواهم فى الدين: إنه المعصية والاعتداء:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

فالكفر بآيات الله ـ سواء بإنكارها أصلا، أو عدم الاحتكام إليها وتنفيذها فى واقع الحياة ـ وقتل الأنبياء بغير حق. وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٢١ ـ ٢٢.

والعصيان والاعتداء.. هذه هى المؤهلات لغضب الله، وللهزيمة والذلة والمسكنة..

« ليسوا سواء » :

وإنصافا للقلة الخيرة من أهل الكتاب، يعود السياق عليهم بالاستثناء، فيقرر أن أهل الكتاب ليسوا سواء. فهناك المؤمنون. يصور حالهم مع ربهم، فإذا هى حال المؤمنين الصادقين. ويقرر جزاءهم عنده، فإذا هو جزاء الصالحين:

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾(١).

وهى ــ كما أسلفنا ــ صورة وضيئة ترفع أمام الراغبين فى هذه الشهادة، وفى هذا الوعد، ليحققها فى ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضىء فى أفقها المنير.

عمرو بن سعد القرظى :

وها هو موقف زعيم كان يهوديا، قد أبى الاشتراك فى جريمة خيانة المسلمين والغدر بهم، وأعلن للملأ أنه باق على عهده، وفى الوقت نفسه حاول أن ينقذ قومه ــ كما حاول غيره من قبل ــ من المصير المرعب الذى كان ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم، وذلك بأن دعاهم إلى الدخول فى الإسلام، لا سيما وأنهم يعلمون أن محمدا ﷺ نبى مرسل، كما هو مكتوب عندهم فى التوراة.. ذكره الطبرى والبغوى وابن شاهين وغيرهم فى الصحابة(٢)، وهو الذى نزل من حصن بنى قريظة، فى الليلة التى فتح حصنهم، فلم يدر أين ذهب، قال ابن حجر: قال الواقدى: حدثنا الضحاك بن عثمان، ومحمد بن يحيى بن حبان قال: قال عمرو بن سعد: يا معشر يهود، إنكم قد حالفتم محمدا على ما حالفتموه عليه، على أن لا تنصروا عليه أحدا، وأن تنصروه ممن دهمه، فنقضتم ولم أدخل فيه.. فذكر القصة إلى أن قال: فإنى برىء منكم، وخرج فى تلك الليلة فمر بحرس النبى ﷺ

---

(١) آل عمران : ١١٣ ــ ١١٥.

(٢) الإصابة: ٤ : ٣٠٠ بتصرف.

وعليهم محمد بن سلمة.. إلى أن قال: فخلى سبيله، فخرج حتى أتى مسجد النبى ﷺ فبات فيه وأسلم..(١).

مقاومة اليهــود واشـتداد الحصار عليهم :

ومع كل هذا فقد استمرت قريظة فى غيها، ورفضت كل تلك النصائح، فاعتصمت بحصونها، مصممة على القتال والمقاومة..

أما المسلمون فقدأحكموا الحصار حول الحصون، وقاموا بتطويقها من كل جانب، وقطع الجيش الإسلامى كل اتصال بين اليهود وبين الخارج.

وعند ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة، وبه جزم أبو عمرو، وفى ترجمة سعد بن معاذ(٢)، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: كانوا سبعمائة، وقال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة. وفى حديث جابر عند الترمذى والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل. قال ابن حجر :فيحتمل فى طريق الجمع أن يقال:إن الباقين كانوا أتباعا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل إنهم كانوا تسعمائة.

أما المسلمون فقد قال ابن سعد(٣): هم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرسا.

قال ابن إسحاق (٤) : وحاصرهم عليه الصلاة والسلام خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار.

وعند ابن سعد (٥) : خمسة عشر يوما ما أشد الحصار، وعند ابن عقبة(٦): بضع عشرة ليلة.

يهودية تقتل مسلما :

ولم يقع خلال الحصار إلا بعض المناوشات الخفيفة الطفيفة بالنبل والحجارة (٧)، كان من أثرها استشهاد أحد المسلمين مصابا برحى رمته بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها، فقد روى أبو يعلى من طريق عبد الخبير بن قيس بن ثابت بن قيس بن شماس

---

(١) انظر: عيون الأثر : ٢: ٧١ وفيه « عمرو بن سعدى ، وابن هشام: ٢٣٨:٢، والبداية: ٤ :١٢١
(٢) فتح البارى : ٧: ٤١٤.
(٣) الطبقات : ٢: ٧٤.
(٤) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٠ بتصرف.
(٥) الطبقات: ٢: ٧٤.
(٦) المواهب : ٢: ١٣٠ .
(٧) انظر : الرسول القائد: ٢٤٥.

عن أبيه عن جده قال: استشهد شاب من الأنصار يوم قريظة، يقال له خلاد، فقال النبى ﷺ: (١).

« أما إن له أجر شهيدين »

قالوا : لم يا رسول الله ؟ قال :

« لأن أهل الكتاب قتلوه » .

قال ابن مندة: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه قال ابن حجر:زعم ابن الأثير أن خلادا هذا هو خلاد بن سويد ـ أى ابن ثعلبة الأنصارى الخزرجى ـ وقد ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة وغيرهما فى البدريين، وأنه استشهد بقريظة، طرحت عليه امرأة منهم رحا فشدخته، فقال النبى ﷺ:

« إن له أجر شهيدين » .

قال ابن حجر: وعاب ـ أى ابن الأثير ـ على من أفرده بترجمة فلم يصب، لأن الحديث ناطق بأن هذا شاب، وخلاد بن سويد له ولد يقال له السائب، صحابى معروف، وابن ابنه خلاد بن السائب صحابى أيضا، ولا يلزم من كون خلاد بن السائب قتل يوم قريظة بيد المرأة، وقال النبى ﷺ :

« إن له أجر شهيدين » .

أن لا يقتل آخر فيها، فيقال له ذلك.

رئيس بنى قريظة ينصح قومه:

ولما أيقنوا بأن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ غير منصرف عنهم، حتى يناجزهم، دعا كعب بن أسد زعماء قومه، لتبادل وجهات النظربشأن الموقف الحربى(٢)، ولإبداء الرأى حول ما يجب اتخاذه لإنقاذ هذا الموقف المتدهور.

ولما اجتمع رؤساء الغدر والخيانة برئيسهم، وكان عاقلا متزنا، لولا رفقاء السوء الذين غلبوه على أمره، وحملوه على نقض العهد الذى بينه وبين النبى ﷺ ـ كما أسلفنا ـ فقد

(١) الإصابة : ٢: ١٤٠ بتصرف.

(٢) غزوة بنى قريظة : ١٧٨ بتصرف.

كان كعب كارها لنقض العهد، وراغبا رغبة أكيدة فى البقاء على ولائه للمسلمين، ومن أجل ذلك أغلق باب حصنه، وأبى أن يفتحه عندما علم أن حييّ بن أخطب جاء لمقابلته، عندما وصلت جيوش الأحزاب إلى ضواحى المدينة، لأنه كان يعلم أن حييّا هذا ما جاء إلا ليطلب من بنى قريظة الغدر بالمسلمين، والانضمام إلى الأحزاب، فكان كعب متخوفا من نقض العهد، وكان يقدر النتائج الوخيمة التى ستترتب على الغدر بالمسلمين قبل وقوعها.

ولهذا رفض أول الأمر مقابلة حييّ بن أخطب، واستقبح رأيه الداعى إلى الغدر بالمسلمين، حيث قال بكل صراحة: ويحك يا حييّ إنك امرؤ مشئوم، وإنى قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بينى وبينه، فإنى لم أر منه إلا وفاء وصدقا.

وعندما أراد حيى التأثير عليه بقوة الأحزاب الضاربة، وإقناعه بأن قضاءها على المسلمين فى حكم المؤكد قال له: ويحك، افتح لى، ولم يزل به حتى فتح له، فقال: ويلك يا كعب، جئتك بعز الدهر، جئتك بقريش حتى أنزلهم بمجتمع الأسيال ومن دونه غطفان، وقد عاهدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه، فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شىء، ويحك يا حييّ، دعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا، ولم يزل به يفتله فى الذروة والغارب حتى نقض عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وأعطاه عهدا ـ كما سبق أن عرفنا ـ على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه فى حصنه..

وعندما اجتمع يهود بنى قريظة برئيسهم كعب بن أسد، عندما خنقهم الحصار، قال كعب(١) يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال:

نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله! لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

وقالوا: لانفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا، ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٦٨ بتصرف.

نهلك، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم علىّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.

قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ!

قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما! (١).

الوقت والمباغتة:

ولا شك أن إسراع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لتطويق اليهود ـ كما عرفنا ـ حال بينهم وبين الاستعانة بحلفائهم، أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم(٢)، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قواتهم، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الإدارية التى يحتاجون إليها فى القتال، حتى يستطيعوا الصمود فى حصارهم أطول مدة ممكنة.

ولكن إسراع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بتحريك قواته لتطويقهم، حال بين يهود بنى قريظة وبين كل ذلك، إذ لم يكن عندهم علم بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب، ليسبقوا النظر فى إعداد كل متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين.

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك الوقت الكافى لهم لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم، كما لم تترك الوقت الكافى لتنظيم أى خطة عسكرية على الإطلاق يقابلون بها المسلمين، فقد ظهر لنا من سيرحوادث غزوة بنى قريظة أنهم لم يفعلوا شيئا، وكانوا مترددين فى كل شىء، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التى كانت بجانبهم، والتى كان بإمكانهم ـ لو أحسنوا التصرف ـ الاستفادة من تلك المحسنات لكى يقاوموا المسلمين وقتا غير قصير.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢:٢٣٦، والمواهب: ٢:١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) الرســول القائد: ٢٥٧ بتصرف.

حصونهم قوية منيعة، وعددهم كبير، وسلاحهم وفير، والأرزاق والماء لديهم.. كل ذلك يساعدهم على الصمود، ولكن هذه المحصنات العسكرية التى بجانب يهود بنى قريظة لا تفيد شيئا، مادامت معنوياتهم منحطة تماما..

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت أن ظروفهم ـ كما عرفنا ـ لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب.

لقد كانوا منهوكى القوى لسهرهم الطويل على حراسة مواضعهم ما يقرب من شهر، فى موقف عصيب يحطم أعصاب أشجع الشجعان.

وكان الطقس باردا، وقدتحملوا البرد فى العراء وقتا طويلا أثناءحصارهم، فلما انسحبت الأحزاب آن لهم أن ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القريبة.

وكانت قضاياهم الإدارية بشكل لا يحسدون عليه.

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الإسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

والمباغته تكون بالوقت والمكان والأسلوب.

أما المباغتة بالمكان فهى أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

وأما المباغتة بالزمان فهى أن تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو.

وأما المباغتة بالأسلوب فهى أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد العبقرى هو الذى يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا، لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا.

ولقد طبق الرسول الحبيب المحبوب ﷺ كل أساليب المباغتة، فقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال، هو حفر الخندق، كما رأينا كيف باغت بنى قريظة بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشل معنوياتهم، واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة.

والدارس لسيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يرى أنواع المباغتة، وأنها أهم مبادئ

الحرب قديما وحديثا، وأن المسلمين قد حرصوا على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر..

محاولة اليهود الأخيرة :

ولا شك أن يهود بنى قريظة، قبل أن يستسلموا، قد قلبوا الأمر من جميع وجوهه للاستعانة والاستغاثة بأية فئة يمكنها المساهمة فى تخليص رقابهم من الموت المحقق الذى ينتظرهم جزاء خيانتهم العظمى.

ولكن هكذا انقطعت بهم الأسباب،وهكذا كان الحال، وعليه فلا مناص من الاستسلام لقوات المسلمين، والنزول على حكم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومن ثم رأوا أن يقوموا بمحاولة أخيرة، وذلك أنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، لنستشيره فى أمرنا. فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، أنه الذبح [١].

أهل أبى لبابة وأمواله فيهم :

وإنما كان اختيارهم لأبى لبابة لما روى سعيد بن منصور عن عبد الله بن أبى قتادة فى سبب نزول قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [٢].

قال: نزلت فى أبى لبابة، حين حاصر رسول الله ﷺ قريظة، وأمرهم أن ينزلوا على حكم سعد، فاستشار قريظة من أبى لبابة فى النزول على حكم سعد، وكان أهل أبى لبابة وأمواله فيهم، فأشار إلى حلقه، أنه الذبح [٣].

(١) انظر سيرة ابن هشام: ٢ : ٢٣٦، وتهذيب السيرة: ٢:٥، والمواهب اللدنية: ٢: ١٣١، والسيرة الحلبية : ٢:١١٧، والبداية: ٤:١١٩، وجوامع السيرة ١٩٣.

(٢) الأنفال: ٢٧.

(٣) تفسير القاسمى : ٨:٢٩٧٩.

أبو لبابـة يربط نفسه فى المسجد :

قال أبو لبابة: ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله.

ثم حلف ألا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه. وانطلق إلى المسجد، فربط نفسه بسارية،فمكث أياما حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد، ثم أنزل الله توبته، وحلف لا يحله إلا رسول الله ﷺ، فحله، فقال: يا رسول الله! إنى كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة، فقال:

« **يجزيك الثلث أن تصدق به** » [1].

ورواه مالك عن ابن شهاب، أنه بلغه أن أبا لبابة بن عبد المنذر، حين تاب الله عليه، قال: يا رسول الله! أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب، وأجاورك. وأنخلع من مالى صدقة إلى الله، وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ :

« **يجزيك من ذلك الثلث**» [2].

قال بعض المفسرين[3]: دل هذا السبب على جواز إظهار الجزع على المعصية، وإتعاب النفس وتوبيخها، لأنه ﷺ لم ينكر على أبى لبابة.

ودل على أنه يستحب إتباع المعصية بالصدقة، لأنه عليه السلام قال:

« **يجزيك من ذلك الثلث** ».

وهذا سبيل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [4]

وفى قوله تعالى:« وأنتم تعلمون» دليل على أن ذنب العالم بالخطيئة أعظم من غيره، لأن المعنى : وأنتم تعلمون تبعة ذلك ووباله.

قال الرازى: ثم إنه لما كان الداعى إلى الإقدام على الخيانة هو حب الأموال والأولاد، نبه تعالى على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضارة المتولدة من ذلك الحب فقال:

---

(١) المرجع السابـق.

(٢) الموطأ: ٢٢ ـ النذور ١٦.

(٣) تفسير القاسمى : ٨:٢٩٧٩.

(٤) هـود: ١١٤.

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[1].

قال ابن هشام: وأقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته، فى وقت كل صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فتربطه بالجذع، قال فى المواهب[2]: وكأن هذه الست تقيدت به فيها امرأته، وباقى البضع عشرة بنته ..

وقال أبو عمر: روى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبى بكرأن أبا لبابة ارتبط بسلسلة ثقيلة [3]، بضع عشرة ليلة، حتى ذهب سمعه، وكاد يذهب بصره، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة، أو أراد أن يذهب لحاجة، فإذا فرغ أعادته. قال فى المواهب: والظاهر كما قال الشامى أن زوجه كانت تحله مرة، وبنته أخرى.

توبـــة أبى لبابـــة:

وروى ابن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط أن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ، قال ابن هشام والآية التى نزلت فى توبته قول الله عز وجل:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[4].

وهو فى بيت أم سلمة..!وهذا مرسل، وقد رواه ابن مردويه بسند فيه الواقدى موصولا عن أم سلمة، وفيه: وأنزل الله تعالى:

﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ الآيــة.

ويحتمل أن يزيد حمله عنها، وقد يشعر به قوله: قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر، وهو يضحك فقالت: قلت يا رسول الله! مم تضحك ؟ أضحك الله سنك، قال:

« تيب على أبى لبابة »

قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله!قال:

---

(١) الأنفال: ٢٨. (٢) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٢ـ١٣٣ بتصرف.

(٣) فى عيون الأثر: ٢: ٧٠ ربوض، والربوض: الثقيلة، وفى المواهب: أى عظيمة غليظة.

(٤) التوبـــة: ١٠٢.

« **بلى، إن شئـت** ».

ولفظ ابن مردويـة قال:

« **مـا شـئت** ».

وكله إليها، حتى لا يشـق عليها بالليل.

قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فقالت: فقلت يا أبا لبابـة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه.

قال السهيلى: فإن قيل: الآية ليست نصا فى توبة الله عليه أكثر من قوله:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾

فالجواب أن عسى منه سبحانه واجبة وخبر صدق، فإن قيل: القرآن نزل بلسان العرب، وعسى ليست فى كلامهم بخبر، ولا تقتضى وجوبا، قلنا: عسى تعطى الترجى مع المقاربة، ولذا قال :

﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾(١).

ومعناه الترجى مع الخبر بالقرب، كأنه قال: قرب أن يبعثك، فالترجى مصروف إلى العبد، والخبرعن القرب مصروف إلى الله، وخبره حق، ووعده حتم، فما تضمنه من الخبر فهو الواجب دون الترجى الذى هو محال على الله.

وروى عن ابن عباس من طرق عند ابن مردوية وابن جرير ما دل على سبيل الصراحة على أن ارتباطه بسـارية المسـجد كان بتخلفـه عن غـزوة تبـوك ، كما قال ابن المسـيب . قال : وفى ذلك نزلت هذه الآية . وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مندة عن جابر بسند قوى، وعلى تقدير صحة الخبرين فيجمع باحتمال تعدد رباط نفسه..

---

(١) الإسراء: ٧٩.

تحذيـر وتذكيــــر:

ولا نترك هذا الموقف قبل أن نأخذ منه أن الأموال والأولاد قد تقعد الناس عن الاستجابة خوفا وبخلا، وأن الحياة فى رحاب الإيمان حياة كريمـة، لا بد لها من تضحيات [1].. لذلك يعالج القرآن هذا الحرص بالتنبيه إلى فتنة الأموال والأولاد ـ فهى موضع ابتلاء واختبار وامتحان ـ وبالتحذير من الضعف عن اجتياز هذا الامتحان، ومن التخلف عن دعوة الجهاد، وعن تكاليف الأمانة والعهد والبيعة.. واعتبار هذا التخلف خيانة لله والرسول، وخيانة للأمانات التى تضطلع بها الأمـة فى الأرض، وهى إعلاء كلمة الله، وتقرير ألوهيته وحده للعباد، والوصاية على البشرية بالحق والعدل.. ومع هذا التحذير التذكير بما عند الله من أجر عظيم يرجح الأموال والأولاد، التى قد تقعد الناس عن التضحية والجهاد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

إن التخلى عن تكاليف الأمة المسلمة فى الأرض خيانة لله والرسول .. يحذر الله منها العصبة المؤمنة التى آمنت به، وأعلنت الإيمان، فأصبح متعينا عليها أن تجاهد لتحقيق مدلوله الواقعى، والنهوض بتكاليف هذا الجهاد فى الأنفس والأموال والأولاد.

كذلك يحذرها خيانة الأمانة التى حملتها يوم بايعت على الإسلام، فالإسلام ليس كلمة تقال باللسان ليس لها فى الجنان مكان، وليس مجرد عبارات وأدعيات. إنما هو منهج حياة كاملة شاملة تعترضه العقبات والمشاق.. إنه منهج لبناء واقع الحياة على قاعدة أن لا إله إلا الله، وذلك برد الناس إلى العبودية لربهم الحق، ورد المجتمع إلى حاكميته وشريعته، ورد الطغاة البغاة المعتدين على ألوهية الله وسلطانه من الطغيان والاعتداء، وتأمين الحق والعدل للناس جميعا، وإقامة القسط بينهم بالميزان الثابت، وتعمير الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها بمنهج الله..

وكلها أمانات، من لم ينهض بها فقد خانها، وخاس بعهده الذى عاهد الله عليه، ونقض بيعته التى بايع بها..

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣: ١٤٩٧ بتصرف.

وكل أولئك فى حاجة إلى التضحية والصبر والاحتمال، وإلى الاستعلاء على فتنة الأموال والأولاد، وإلى التطلع إلى ما عند الله من الأجر العظيم، المدخر لعباده الأمناء على أمانته، الصابرين المؤثرين المضحين..

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية، بما يعلم خالقها من تركيبها الخفى، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن، وعلى المنحنيات والدروس والمسالك!

وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة، ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولادمن أعمق مواطن الضعف فيها.. ومن هنا ينبهها إلى حقيقة هبة الأموال والأولاد.. لقد وهبها الله للناس ليبلوهم بها ويفتنهم فيها.. فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع امتحان وابتلاء ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه.. أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [1]

إن الابتلاء بالشر مفهوم أمره. ليتكشف مدى احتمال المبتلى[2]، ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته فى ربه، ورجائه فى رحمته.. فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان..

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر..

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير..

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة، ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانهم، الجامحة فى أوصالهم..

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع!

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) المرجع السابق: ٤: ٢٣٧٧.

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم،ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء!

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح، ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذى يقعد الهمم، ويذلل الأرواح!

إن الابتلاء بالشدة قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة، ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينيمها ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة!

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جاءهم الرخاء سقطوا فى الابتلاء!

وذلك شأن البشر.. إلا من عصم الله، فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة فى الابتلاء بالشر، والصلة بالله فى الحالين وحدها هى الضمان..

فإذا تنبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عونا له على الحذر واليقظة والاحتياط، أن يستغرق وينسى ويخفق فى الامتحان والفتنة..

ثم لا يدعه الله بلا عون ولا عوض.. فقد يضعف عن الأداء بعد الانتباه، لثقل التضحية، وضخامة التكليف، وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد! إنما يلوح له بما هو خير وأبقى، ليستعين به على الفتنة ويتقوى:

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

إنه سبحانه هو الذى وهب الأموال والأولاد.. وعنده وراءهما أجر عظيم لمن يستعلى على فتنة الأموال والأولاد، فلا يقعد أحد إذن عن تكاليف الأمانة وتضحيات الجهاد.. وهذا العون والمدد للإنسان الضعيف الذى يعلم خالقه مواطن الضعف فيه.

الفصل الثالث

محاكمة عادلة

تمهيد ـ التهديد بالاقتحام ـ استسلام اليهود ـ شفاعة الأوس ـ موقف سعد ـ الحكم الجريح ـ «قوموا إلى سيدكم» ـ القيام للداخل ـ الحكم على بنى قريظة ـ تنفيذ الحكم ـ أفى كل موطن لا تعقلون؟ ـ شيطان بنى النضير يتكلم قبل إعدامة ـ الرجل الوحيد الذى لم يقتل ـ قصة عجيبة ـ المرأة الوحيدة التى أعدمت ـ تقسيم الغنائم ـ هدى النبى ﷺ فى التقسيم ـ الجهاد والغنائم ـ رسول الله يصطفى ريحانة ـ قتل أبى رافع ـ قول حسان ـ شهيد يهتز له عرش الرحمن ـ نهاية المعركة.



تمهيد :

ونعود إلى محاولة اليهود الأخيرة ، فنجد أن استشارة أبى لبابة كانت آخر محاولة قام بها بنو قريظة ـ كما عرفنا ـ للحصول على أي شرط يحقنون به دماءهم عند الاستسلام، ولكنهم بدلا من أن يظفروا بشيء من ذلك تلقوا من أبي لبابة بإشارته تلك ما يؤكد لهم أن الموت مصيرهم (١) .

وبهذا انقطع آخر خيط من الأمل لهم فى التخفيف ، وبدلا من أن يكون ذلك حافزا لهم على المقاومة حتى الموت ، تملكهم الرعب والفزع ، والخوف والهلع ، والجبن والجزع، وسيطرت عليهم روح الجبن ، كما هو شأن اليهود ، فانهاروا انهيارا كليا .

لقد كان بوسع بنى قريظة ـ وخاصة فى ذلك الظرف ـ أن يستمروا فى المقاومة لأشهر طويلة، وكان المسلمون المحاصرون لهم فى حالة تعب شديد، ونتيجة الجهد المضنى الذى بذلوه فى ليالى الخندق المخيفة، التى تحالف فيها البلاء على المسلمين، وأحاطهم من كل جانب، حرموا فيها حتى النوم، لشدة الخوف ودوام الحراسة والمرابطة فى وجه أعدائهم المحاصرين لهم!

ويضاف إلى ذلك أن المسلمين كانوا فى شدة، ويرابطون حول اليهود فى العراء، فيتعرضون للفح البرد الشديد، بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم المنيعة الشامخة، فى مأمن من لفح البرد القارص، وعندهم كل مايحتاجون من الطعام لأشهر طويلة، كما أن الماء كان موجودا لديهم بصفة دائمة داخل الحصون، حيث كانت تحتوى على آبار كثيرة.

ولكن اليهود ـ مع كل هذه العوامل التى توحى بقوتهم المادية التى تمكنهم من الاستمرار فى المقاومة لمدة طويلة ـ قد انهارت أعصابهم، وتحطمت معنوياتهم إلى درجة أنهم لم يحتملوا الحصار، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب، ومن ثم كانوا لا يفكرون ـ مجرد تفكير ـ فى استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم، وانهاروا تماما.

التهديد بالاقتحام:

ومع شدة الجزع والفزع والهلع، والرعب والخوف، والانهيار الكلى الذى عم يهود بنى قريظة، فقد ظلوا يماطلون فى التسليم، فى انتظار خارقة تتدخل لإنقاذهم من وحل

(١) غزوة بنى قريظة : ١٩٢ وما بعدها بتصرف .

الورطة الخانقة، ولكن هيهات هيهات، فالمسلمون لما رأوا مماطلة اليهود فى التسليم ـ مع الانهيار الذى لاحظوه عليهم ـ أرهبوهم إرهابا شديدا، إذ أعلنوا أنهم سيقتحمون الحصون ويفتحونها بحد السيف.

ولقد كان المسلمون، دون ما شك، يفضلون أن يتم استسلام بنى قريظة، دون ما قتال، ولهذا ظلوا على ماهم فيه من تعب وشدة، يحاصرونهم هذه المدة..

ولكنهم لما رأوا مماطلتهم فى الاستسلام، رأوا أن بقاء القوات الإسلامية مرابطة فى العراء هكذا حول الحصون، فى ذلك البرد القارص، مع تلك الشدة، مما يعود بالضرر الكبير على القوات الإسلامية المحاصرة، وقد يعود بالفائدة على اليهود، قرروا اقتحام الحصون المغلقة وفتحها، مهما كان الثمن.

قال ابن هشام: (١) حدثنى من أثق من أهل العلم أن على بن أبى طالب صاح، وهم محاصرو بنى قريظة: ياكتيبة الإيمان، وتقدم هو و الزبير بن العوام، وقال: والله! لأذوقن ماذاق حمزة أو أقتحم حصنهم.

استسلام اليهـــود:

وبعد هذا الإنذار الذى سمعه يهود بنى قريظة من حامل لواء الجيش على بن أبى طالب (٢)، تحركت قوات الجيش الإسلامى وتأهبت للهجوم العام، واقتحام الحصون فى هجوم كاسح.

ولكن اليهود ـ وهذا الذى كانت تتوقعه القيادة الإسلامية منهم ـ لما رأوا كتائب الجيش الإسلامى تتحرك، وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لامفر منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، دونما قيد أو شرط.

فأوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورا، بعد أن ألقوا سلاحهم، وأخذوا فى مغادرة الحصون مستسلمين.

فابتدرهم جند الإسلام لحراستهم، وصاروا يجمعونهم منعزلين فى ناحية، وبعد أن

(١) البداية : ٤ : ١٢٢ .

(٢) غزوة بنى قريظة: ١٩٥ وما بعدها بتصرف.

تكامل خروجهم من الحصون رجالا ونساء وأطفالا، أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ باعتقال الرجال، ووضع القيود فى أيديهم. وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة.

أما النساء والذرارى، فقد أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعزلهم عن الرجال، فجعلوا فى ناحية، بعد أن وكل أمرهم عبد الله بن سلام .(١)

وبعد أن تمت عملية الاستسلام أمر النبى ﷺ أن يوضع الزجال فى حبس خاص بهم.

وذكر ابن إسحاق أنهم حبسوا فى دار بنت الحارث، وفى رواية أبى الأسود عن عروة فى دار أسامة بن زيد، ويجمع بينهما بأنهم جعلوا فى بيتين، ووقع فى حديث جابر عند ابن عائذ التصريح بأنهم جعلوا فى بيتين .(٢)

واختلف فى عدتهم: فعند ابن إسحاق أنهم كانوا ستمائة، وبه جزم أبو عمرو فى ترجمة سعد بن معاذ، وعند ابن عائذ من مرسل قتادة: كانوا سبعمائة، وقال السهيلى: المكثر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة، وفى حديث جابر عند الترمذى والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل، فيحتمل فى طريق الجمع أن يقال: إن الباقين كانوا أتباعا، وقد حكى ابن إسحاق أنه قيل أنهم كانوا تسعمائة.(٣)

شفاعة الأوس :

وقد كان بنو قريظة ــ كما عرفنا ــ حلفاء الأوس فى الجاهلية، كما كان بنو النضير وبنو قينقاع حلفاء الخزرج.

ومن ثم كلمت الأوس رسول الله ﷺ أن يهبهم لهم. (٤)

قال ابن إسحاق: فما أصبحوا ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله!! إنهم كانوا موالينا، دون الخزرج.، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت، يعنون عفوه عن بنى قينقاع، حين سأله فيهم عبد الله بن أبى، (٥) فاكتفى ــ كما عرفنا ــ بمعاقبتهم بنفيهم من المدينة.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢ : ٧٥ بتصرف .

(٢) فتح البارى: ٧ : ٤١٤، والمواهب اللدنية:٢ : ١٣٦ .

(٣) فتح البارى: ٧ :٤١٤، والبداية:٤: ١٢٤

(٤) الطبقات الكبرى : ٢: ٧٥.

(٥) البداية : ٤ : ١٢١

موقف سـعد :

ومع فظاعة الجريمة.. جريمة الغدر والنكث والخيانة العظمى التى ارتكبها يهود بنى قريظة، فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لم يشأ أن يرفض وساطة الأوس.

بل مراعاة لهؤلاء الصحابة الأجلاء الذين تحت ضغط رماحهم وإرهاب سيوفهم استسلم هؤلاء المجرمون من اليهود، جعل مصيرهم فى أيدى الأوس أنفسهم، حيث فوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس، سعد بن معاذ، ليحكم فيهم بما يريه الله تعالى.

وقد طابت نفس الأوس بهذا التفويض.. إلا أن حكم سيدهم سعد بن معاذ فى هؤلاء جاء فى خلاف ما كان يتوقع قومه، فقد قالوا:

أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم [1]..

الحَكَـمُ الجريح :

وكان سعد بن معاذ رضى الله عنه تحت العلاج من جرحه الخطير الذى أصابه وقطع شريانه يوم الخندق ـ كما أسلفنا ـ نتيجة سهم أصابه.

وكانت تقوم بالعلاج سيدة صحابية جليلة، كانت قد أقامت لها خيمة فى المسجد النبوى، تحتسب فيها عند الله القيام بمداواة جرحى المعارك من الصحابة، ممن لم يكن له من يعالجه من أهله.

وسعد بن معاذ رضى الله عنه سيد الأوس، وله أهله وعشيرته والقادرين على رعايته وعلاجه، ولكن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أمر أن يكون فى خيمة المسجد، ليعوده ويتعرف حاله متى شاء.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها «رفيدة» فى مسجده كانت تداوى الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين [2] .

---

(١) البداية: ٤ : ١٢١، والمواهب اللدنية: ٢: ١٣٤، وابن هشام: ٢: ٢٣٩

(٢) تهذيب السيرة : ٢: ٦ .

وقال ابن حجر: « كعيبة » بنت سعيد الأسلمية.. ذكر أبو عمرو عن الواقدى أنها شهدت خيبر مع رسول الله ﷺ ، فأسهم لها سهم رجل، وقال ابن سعد: هى التى كانت تكون فى المسجد لها خيمة تداوى المرضى والجرحى، وكان سعد بن معاذ حين رمى عندها تداوى جرحه حتى مات.. فهما امرأتان وقع الخلاف فيهن تنسب إليه الخيمة منهما، وليس أحدهما اسما والأخر لقبا (١) .

قلت: والأول أولى، فقد روى البخارى فى الأدب المفرد بسند صحيح عن محمود ابن لبيد: لما أصيب أكحل سعد يوم الخندق فثقل، حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة» وكانت تداوى الجرحى،وكان رسول الله ﷺ إذا مر به يقول :

« كيف أمسيت ؟ »

وإذا أصبح يقول :

« كيف أصبحت ؟ »

فيخبره، وأورده فى التاريخ فى قصة وفاة سعد، وسنده صحيح، ،أورده المستغفرى من طريق البخارى، وأبو موسى من طريق المستغفرى (٢) .

وقد توجه أعيان الأوس لمقابلة سعد بن معاذ فى المسجد النبوى، وأخبروه أن النبى ﷺ قد ولاه ــ كما عرفنا ــ ومن ثم قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم.. وهنا رجع بعض من كان معه من قومه إلى داربنى عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد عن كلمته التى سمع منه (٣) .

ولما كان جرح سعد جرحا خطيرا، فقد هيأ له قومه حمارا لأعرابى عليه قطيفة، وقد وطؤا له زيادة على ذلك بوسادة من أدم، لمشقة ركوبه على القطيفة للجرح، ولأنه كان رجلا جسيما، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ (٤) .

« قوموا إلى سيدكم » :

ولقد وصل سعد بن معاذ رضى الله عنه إلى مقر قيادة النبى ﷺ ، وكان هذا

---

(١) المواهب اللدنية:٢:١٣٤، والإصابة: ٨: ١٧٦.

(٢) المواهب اللدنية:٢: ١٣٤، والإصابة ٨:٨١.

(٣) البداية : ٤: ١٢١.

(٤) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٤ .

الاستقبال له، فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، هو ابن معاذ، بعث رسول الله ﷺ ـ وكان قريبا منه ـ فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله ﷺ :

« قوموا إلى سيدكم » .

فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال له :

« إن هؤلاء نزلوا على حكمك » .

قال: فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة ، وأن تسبى الذرية .

قال : « لقد حكمت فيهم بحكم الملك » (١) .

القيام للداخـــل :

وهنا أرى ضرورة ذكر أقوال العلماء فى ذلك فقد ترجم له البخارى أيضا بقوله: باب قول النبى ﷺ :

« قوموا إلى سيدكم » (٢) .

وقد أفاد ابن حجر وأجاد، حيث قال: (٣) هذه الترجمة معقودة لحكم قيام القاعد للداخل، ولم يجزم فيها بحكم، للاختلاف، بل اقتصر على لفظ الخبر كعادته.

قال ابن بطال : فى هذا الحديث أمر الإمام الأعظم بإكرام الكبير من المسلمين ، ومشروعية إكرام أهل الفضل فى مجلس الإمام الأعظم، والقيام فيه لغيره من أصحابه ، وإلزام الناس كافة بالقيام إلى الكبير منهم.

وقد منع من ذلك قوم، واحتجوا بحديث أبى أمامة قال: خرج علينا النبى ﷺ متوكئا على عصا، فقمنا له،فقال:

« لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض » .

---

(١) البخارى: ٥٦ ـ الجهاد (٣٠٤٣)، ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦٤ (١٧٦٨)، وأبو داود (٥١٩٣) عون المعبود، وانظر أحمد : ٦: ١٤١ ـ ١٤٢ .

(٢) البخارى: ٧٩ ـ الاستئذان ٢٦ باب قول النبى ﷺ « قوموا إلى سيدكم » .

(٣) فتح البارى : ١١: ٤٩ وما بعدها بتصرف .

وأجاب عنه الطبرى بأنه حديث ضعيف مضطرب السند، فيه من لا يعرف [1] .

قال ابن حجر: واحتجوا أيضا بحديث عبد الله بن بريدة أن أباه دخل على معاوية فأخبره أن النبى ﷺ قال :

« **من أحب أن يتمثل له الرجال قياما وجبت له النار** » .

وأجاب عنه الطبرى بأن هذا الخبر إنما فيه نهى من يقام له عن السرور بذلك لا نهى من يقوم له إكراما له .

وأجاب عنه ابن قتيبة بأن معناه من أراد أن يقوم الرجال على رأسه، كما يقام بين يدى ملوك الأعاجم، وليس المراد به نهى الرجل عن القيام لأخيه إذا سلم عليه.

واحتج ابن بطال للجواز بما أخرجه النسائى من طريق عائشة بنت طلحة غن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا رأى فاطمة بنته قد أقبلت رحب بها، ثم قام فقبلها، ثم أخذ بيدها حتى يجلسها مكانه.

قلت: وحديث عائشة هذا أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه وصححه ابن حبان والحاكم، وأصله فى الصحيح لكن ليس فيه ذكر القيام،وترجم له أبو داود «باب فى القيام» وأورد معه فيه حديث أبى سعيد ـ السابق ـ « **قوموا إلى سيدكم أو إلى خيركم**» [2].

وكذا صنع البخارى فى الأدب المفرد، وزاد معهما حديث كعب بن مالك فى قصة توبته،وفيه « فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول » وقد أشار إليه فى الباب الذى يليه.

قال : وحديث أبى أمامة المبدأ به أخرجه أبو داود وابن ماجة .

وحديث ابن بريدة أخرجه الحاكم من رواية حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة عن معاوية فذكره، وفيه :

« **ما من رجل يكون على الناس فيقوم على رأسه الرجال، يحب أن يكثر عنده الخصوم فيدخل الجنة** » .

---

(١) انظر عون المعبود، (٥٢٠٨) وأحمد: ٥:٢٥٣ .

(٢) عون المعبود (٥١٩٣)، (٥١٩٥) .

وله طريق أخرى عن معاوية، أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه، والبخارى فى الأدب المفرد [1] من طريق أبى مجلز، قال: خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار » .

هذا لفظ أبى داود وأخرجه أحمد من رواية حماد بن سلمة عن حبيب بن الشهيد عن أبى مجلز[2] ؛ وأحمد عن إسماعيل بن علية عن حبيب مثله، وقال: «العباد» بدل «الرجال» ومن رواية شعبة عن حبيب مثله، وزاد فيه: «ولم يقم ابن الزبيروكان أرزنهما، قال: فقال مه» فذكر الحديث، وقال فيه:

« من أحب أن يتمثل له عباد الله قياما » .

وأخرجه أيضا عن مروان بن معاوية عن حبيب بلفظ: خرج معاوية فقاموا له، وباقيه كلفظ حماد.

وأما الترمذى فإنه أخرجه من رواية سفيان الثورى عن حبيب، ولفظه:

« خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه، فقال اجلسا » فذكر مثل لفظ حماد، وسفيان وإن كان من جبال الحفظ إلا أن العدد الكثير، وفيهم مثل شعبة أولى بأن تكون روايتهم محفوظة من الواحد، وقد اتفقوا على أن ابن الزبير لم يقم، وأما إبدال ابن عامر بابن صفوان ، فسهل لاحتمال الجمع بأن يكونا معا وقع لهما ذلك، ويؤيده الإتيان فيه بصيغة الجمع، وفى روايةمروان بن معاوية المذكورة .

وقد أشار البخارى فى الأدب المفرد إلى الجمع المنقول عن ابن قتيبة فترجم أولا : «باب قيام الرجل لأخيه» وأورد الأحاديث الثلاثة التى أشرت إليها، ثم ترجم «باب قيام الرجل للرجل القاعد» «وباب من كره أن يقعد ويقوم له الناس » وأورد فيها حديث جابر اشتكى النبى ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد فالتفت إلينا فرآنا قياما ، فأشار إلينا فقعدنا ، فلما سلم قال :

---

(١) الأدب المفرد (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذى (٢٧٥٥)

(٢) انظر: أحمد: ٤ : ٩٣، ١٠٠ .

« إن كدتم لتفعلوا فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود، فلا تفعلوا »

وهو حديث صحيح أخرجه مسلم عنه قال اشتكى رسول الله ﷺ فصلينا وراءه وهو قاعد. وأبو بكر يسمع الناس تكبيره. فالتفت إلينا فرآنا قياما. فأشار إلينا فقعدنا. فصلينا بصلاته قعودا. فلما سلم قال:

« إن كدتم آنفا لتفعلون فعل فارس والروم. يقومون على ملوكهم وهم قعود. فلا تفعلوا. ائتموا بأئمتكم. إن صلى قائما فصلوا قياما. وإن صلى قاعدا فصلوا قعودا » (١).

قال: وترجم البخارى أيضا «قيام الرجل للرجل تعظيما» وأورد فيه حديث معاوية من طريق أبى مجلز.

ومحصل المنقول عن مالك: إنكار القيام مادام الذى يقام لأجله لم يجلس، ولو كان فى شغل نفسه فإنه سئل عن المرأة تبالغ فى إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع ثيابه وتقف حتى يجلس، فقال أما التلقى فلا بأس به، وأما القيام حتى يجلس فلا، فإن هذا فعل الجبابرة، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز.

وقال الخطابى: فى حديث الباب جواز إطلاق «السيد» على الخير الفاضل ، وفيه أن قيام المرءوس للرئيس الفاضل والإمام العادل والمتعلم للعالم مستحب، وإنما يكره لمن كان بغير هذه الصفات.

ومعنى حديث « **من أحب أن يقام له** » أى بأن يلزمهم بالقيام له صفوفا على طريق الكبر والنخوة.

ورجح المنذرى ما تقدم من الجمع عن ابن قتيبة والبخارى، وأن القيام المنهى عنه أن يقام عليه وهو جالس، وقد رد ابن القيم فى «حاشية السنن» على هذا القول بأن سياق حديث معاوية يدل على خلاف ذلك، وإنما يدل على أنه كره القيام له لما خرج تعظيما، ولأن هذا لا يقال له القيام للرجل وإنما هو القيام على رأس الرجل أو عند الرجل، قال: والقيام ينقسم إلى ثلاث مراتب:

---

(١) مسلم: ٤ـ الصلاة ٨٤ (٤١٣).

قيام على رأس الرجل، وهو فعل الجبابرة.

وقيام إليه عند قدومه، ولا بأس به.

وقيام له عند رؤيته، وهو المتنازع فيه.

ثم قال ابن حجر: وفى مسند عائشة عند أحمد من طريق علقمة بن وقاص عنها فى قصة غزوة بنى قريظة، وقصة سعد بن معاذ ومجيئه مطولا، وفيه: قال أبو سعيد : فلما طلع على رسول الله ﷺ قال:

« قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » .

فقال عمر: سيدنا الله عزو جل. قال:

« انزلوه، فأنزلوه » وسنده حسن (١) .

قال ابن حجر: وهذه الزيادة تخدش فى الاستدلال بقصة سعد على مشروعية القيام المتنازع فيه. وقد احتج به النووى فى كتاب القيام، ونقل عن البخارى ومسلم وأبى داود أنهم احتجوا به، ولفظ مسلم: لا أعلم فى قيام الرجل للرجل حديثا أصح من هذا، وقد اعترض عليه الشيخ أبو عبد الله بن الحاج فقال ما ملخصه:

لو كان القيام المأمور به لسعد هو المتنازع فيه لما خص به الأنصار، فإن الأصل فى أفعال القرب التعميم، ولو كان القيام لسعد على سبيل البر والإكرام لكان هو ﷺ أول من فعله وأمر به من حضر من أكابر الصحابة، فلما لم يأمر به ولا فعله ولافعلوه، دل على أن الأمر بالقيام لغير ما وقع فيه النزاع، وإنما هو لينزلوه عن دابته، لما كان فيه من المرض، كما جاء فى بعض الروايات، ولأن عادة العرب أن القبيلة تخدم كبيرها، فلذلك خص الأنصار بذلك دون المهاجرين، مع أن المراد بعض الأنصار لا كلهم،وهم الأوس منهم لأن سعد بن معاذ كان سيدهم دون الخزرج، وعلى تقدير تسليم أن القيام المأمور به حينئذ لم يكن للإعانة فليس هو المتنازع فيه، بل لأنه غائب قدم، والقيام للغائب إذا قدم مشروع ، قال: ويحتمل أن يكون القيام المذكور إنما هو لتهنئته بما حصل له من تلك المنزلة الرفيعة من تحكيمه، والرضا بما يحكم به، والقيام لأجل التهنئة مشروع أيضا. ثم نقل عن أبى الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه :

---

(١) انظر : أحمد : ٦ : ١٤١ ـ ١٤٢.

الأول: محظور، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرا وتعاظمًا على القائمين إليه.

والثاني: مكروه، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولايتعاظم على القائمين، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك مايحذر، ولما فيه من التشبه بالجبابرة.

والثالث: جائز، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة.

الرابع: مندوب، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحا بقدومه ليسلم عليه، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها، أو مصيبة فيعزيه بسببها.

وقال التوربشتى فى «شرح المصابيح» معنى قوله قوموا إلى سيدكم أى إلى إعانته وإنزاله من دابته ولو كان المراد التعظيم لقال: قوموا لسيدكم. وتعقبه الطيبى بأنه لا يلزم من كونه ليس للتعظيم أن لا يكون للإكرام، وما اعتل به من الفرق بين إلى واللام ضعيف، لأن إلى فى هذا المقام أفخم من اللام، كأنه قيل: قوموا وامشوا إليه تلقيا وإكراما، وهذا مأخوذ من ترتب الحكم على الوصف المناسب المشعر بالعلية، فإن قوله «سيدكم» علة للقيام له، وذلك لكونه شريفا على القدر.

وقال البيهقى: القيام على وجه البر والإكرام جائز كقيام الأنصار لسعد، وطلحة لكعب، ولا ينبغى لمن يقام له أن يعتقد استحقاقه لذلك، حتى إن ترك القيام له حنق عليه أو عاتبه أو شكاه.

قال أبو عبد الله: وضابط ذلك أن كل أمر ندب الشرع المكلف بالمشى إليه تأخر حتى قدم المأمور لأجله فالقيام إليه يكون عوضا عن المشى الذى فات.

واحتج النووى أيضا بقيام طلحة لكعب بن مالك.

وأجاب ابن الحاج بأن طلحة إنما قام لتهنئته ومصافحته، ولذلك لم يحتج به البخارى للقيام، وإنما أورده فى المصافحة [1]، ولو كان قيامه محل النزاع لما انفرد به، فلم ينقل أن النبى ﷺ قام له، ولا أمر به، ولا فعله أحد ممن حضر، وإنما انفرد طلحة لقوة المودة بينهما، على ماجرت به العادة أن التهنئة والبشارة ونحو ذلك تكون على قدر المودة والخلطة،

---

(١) انظر: البخارى: ٧٩ ـ الاستئذان ٢٧ ـ باب المصافحة.

بخلاف السلام فإنه مشروع على من عرفت ومن لم تعرف. والتفاوت فى المودة يقع بسبب التفاوت فى الحقوق، وهو أمر معهود.

قال ابن حجر: ويحتمل أن يكون من كان لكعب عنده من المودة مثل ما عند طلحة لم يطلع على وقوع الرضا عن كعب، واطلع عليه طلحة، لأن ذلك عقب منع الناس من كلامه مطلقا، وفى قول كعب: «لم يقم إلى من المهاجرين غيره إشارة إلى أنه قام إليه غيره من الأنصار.

ثم قال ابن الحاج: وإذا حمل فعل طلحة على محل النزاع لزم أن يكون من حضر من المهاجرين قد ترك المندوب، ولا يظن بهم ذلك.

واحتج النووى بحديث عائشة المتقدم فى حق فاطمة، وأجاب عنه ابن الحاج باحتمال أن يكون القيام لها لأجل إجلاسها فى مكانه إكراما لها، لا على وجه القيام المنازع فيه، ولاسيما ما عرف من ضيق بيوتهم، وقلة الفرش فيها، فكانت إرادة إجلاسه لها فى موضعه مستلزمة لقيامه، وأمعن فى بسط ذلك..

ثم قال ابن حجر: وفى الجملة متى صار ترك القيام يشعر بالاستهانة أو يترتب عليه مفسدة امتنع، وإلى ذلك أشار ابن عبد السلام.

ونقل ابن كثير عن بعض المحققين التفصيل فيه فقال: المحذور أن يتخذ ديدانا كعادة الأعاجم، كما دل عليه حديث أنس، وأما إن كان لقادم من سفر أو لحاكم فى محل ولايته فلا بأس به.

قال ابن حجر: ويلتحق بذلك ما تقدم فى أجوبة ابن الحاج كالتهنئة لمن حدثت له نعمة، أو لإعانة العاجز، أو لتوسيع المجلس، أو غير ذلك.

وقال الغزالى: القيام على سبيل الإعظام مكروه، وعلى سبيل الإكرام لا يكره.

قال ابن حجر: وهذا تفصيل حسن [1].

الحكم على بنى قريظة:

وجاءت اللحظة الرهيبة الرعيبة الحاسمة فى تاريخ بنى قريظة، ووقف سعد بن معاذ

---

(١) انظر: زاد المسلم: ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٢.

ليعلن كلمته النهائية [1]، وأرهف هؤلاء الخونة أسماعهم مشدودة ناحية حليفهم الذى أصبح مصيرهم جميعا فى يده، وسمروا أبصارهم عليه فى قلق وجزع، وخوف وهلع، وركضت قلوبهم الخبيثة بين جنوبهم ووقفت نبضاتها فى انتظار النطق بالحكم عليهم.

وحتى الذين فى المعسكر من المسلمين، شدت أبصارهم ناحية سعد، وخاصة الأوس الذين بذلوا كل المساعى لتخفيف الحكم على بنى قريظة.

شدت أبصار الجميع إلى سعد، ليروا كيف يصدر حكمه على هؤلاء اليهود، لأن الجميع لا يعلمون يقينا ما هو الحكم وإن كانوا يتوقعون أنه سيكون صارما قويا حاسما ورهيبا.

وحكم ـ كما أسلفنا ـ بالقتل على كل من بلغ الحلم من الرجال.

كما حكم أن تسبى النساء والذرارى، فقد روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبىﷺ إلى سعد فأتى على حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار:

« **قوموا إلى سيدكم ، أوخيركم** » فقال : « **هؤلاء نزلوا على حكمك** » .

فقال : تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم . قال :

« **قضيت بحكم الله** » .

وربما قال : « **بحكم الملك** » [2] .

وعند ابن سعد من مرسل حميد قال: [3] قال بعضهم: وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار. قال: فقالت الأنصار إخوتنا كنا معهم، فقال: إنى أحببت أن يستغنوا عنكم.

وقد صعق الخونة لهذا الحكم، وعلاهم الذهول، وخيم عليهم الوجوم، ولم يروا أحدا من المؤرخين أنهم ناقشوا الحكم أو عارضوه بأى احتجاج! لأن هؤلاء اليهود أولا قد نزلوا ـ كما أسلفنا ـ على حكم رسول الله ﷺ دونما قيد أوشرط! ولأنهم ثانيا قد وافقوا بعد

---

(١) غزوة بنى قريظة: ٢٠٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) البخارى:: ٦٤ ـ المغازى (٤١٢١)، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٦٤(١٧٦٨).

(٣) الطبقات الكبرى : ٢ : ٧٧ ـ ٧٨

استسلامهم على تحكيم سعد! ولأنهم ثالثا يعلمون ماقاموا به من خيانة ما بعدها خيانة!

وكيف ينسى سعد رضى الله عنه أن الإسلام وكل المنتسبين إليه، وأن المدينة وما فيها من أعراض وحرمات، وثمار وحرث ونسل، وأن كل كيان الإسلام الدينى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى كان قاب قوسين أو أدنى من التدمير والتخريب، بسبب غدر هؤلاء اليهود ونقضهم العهد، وأنه لم ينج إلا بمعجزة خارقة، ولو لم تحدث لانتهى الكيان الإسلامى إلى الأبد؟!

وكيف ينسى فى زحمة موجات الرجاء الموجه إليه أن هؤلاء اليهود لو تم لهم وللأحزاب النصر على المسلمين لا ستأصلوا شأفة المسلمين، وهتكوا الأعراض، وخربوا الديار، ودمروا كل شىء، كما هو الاتفاق بينهم وبين قيادة الأحزاب، وعندما طلبت منهم هذه القيادة الغدر بالمسلمين ونقض عهدهم؟!

لذلك لم يلبث سعد رضى الله عنه أن قال قولته الخالدة ـ كما أسلفنا ـ:لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم.

ومن ثم أصدر ذلك الحكم الصارم، الذى هو فى مستوى الأحداث، والذى جاء عقوبة على قدر الجريمة.

ومن الجدير بالذكر أن سعد بن معاذ ـ كما عرفنا ـ كان قد أرسله النبى ﷺ هو وسعد بن عبادة إلى بنى قريظة، ليتعرفا حالهم ويؤكدا خيرهم، وذلك بعد أن بلغه أن بنى قريظة قد خانوا العهد، وانضموا إلى معسكر الأحزاب، وبعث مع السعدين عبدالله بن رواحة، وخوّات بن جبير، وأسيد بن حضير[1]... وذهبوا إليهم واختبروا حالهم فوجدوهم على أخبث ما بلغه عنهم، وتكلموا فى حق رسول الله ﷺ وتبرؤوا من عقده وعهده!

ومن ثم تجسدت أمام سعد رضى الله عنه خسة هؤلاء اليهود ونذالتهم، عندما وجهوا إلى المسلمين تلك الطعنة فى أحرج الساعات وأدق الظروف التى مرت بالمسلمين فى هذا الوقت.

ولم ينس سعد فى ضجيج الاستعطاف الموجه إليه من هؤلاء أنه قد حذرهم ونصحهم

---

(١) محمد رسول الله : ٤:١٥٥ وما بعدها.

أن يوفوا بعهدهم وأن لا يغدروا برسول الله ﷺ، لئلا ينتهوا إلى هذا المصير المرعب الذى قادهم إليه أخيرا غدرهم وسعت بهم إليه خيانتهم!

ولم ينس تلك المقالة القبيحة منهم حينما قال لهم: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يابنى قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمرّ منه. فقالوا: أكلت أير أبيك!

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن[١].

لهذا فإن سعد رضى الله عنه كان قد امتلأ يوم ذاك غيظا على هؤلاء اليهود الخونة الأراذل، الذين جمعوا الأحزاب، وكان يتمنى أن يشفى الله غليله منهم[٢]..

وهنا نبصر أن حكم سعد على هؤلاء اليهود إنما جاء بعد دراسة متأنية، وإلمام كامل بنفسيات بنى قريظة، واقتناع بأنهم ـ بعد خبرة وتجربة عاشها معهم ولمسها فيهم ـ جرثومة وباء قاتلة لا مفر من إبادتها.

تنفيذ الحكـــم:

وبعد أن تمت إجراءات الحكم فى بنى قريظة، وكان ذلك فى ديارهم، تحرك الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نحو المدينة فدخلها، وكانت عودته من بنى قريظة يوم الخميس لسبع ليال، كما قاله الدمياطى، أو لخمس ، ـ كما قاله مغلطاى[٣] ـ خلون من ذى الحجة، ولا يتأتى واحد منهما على ما قدمه، أن مدة الحصار خمس وعشرون، أو خمس عشرة، وأنه خرج لسبع بقين من ذى القعدة، نعم يتأتى على أنه بضع عشرة يجعله أقل من خمس عشرة.

وعلى كل فقد أمر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بيهود بنى قريظة بعد نزولهم من الحصن، فكتفوا ونُحّوا ناحية [٤]، والنساء والذرية ناحية، فأدخلوا المدينة ـ كما أسلفنا ـ وحفر لهم أخدود فى السوق[٥]، وجلس ﷺ ومعه أصحابه، وأخرجوا إليه، فضربت أعناقهم، ضربها عليّ والزبير وأسلم الأنصارى كما فى الطبرانى، قال فكنت أضرب عنق من أنبت وأجعل غيره فى المغانم، وفى هذا يروى الترمذى وغيره بسند حسن عن عبد الملك

---

(١) البداية: ٤:٤ ١٠

(٢) انظر : أحمد : ٦:١٤١ ـ١٤٢، والبداية: ٤:١٢٣ ـ١٢٤ ،ومجمع الزوائد: ٦:١٣٦ ـ ١٣٨.

(٣)المواهب : ٢:١٣٦.

(٤) الطبقات الكبرى:٢:٧٥.

(٥) المواهب : ٢: ١٣٦ ـ ١٣٧ بتصرف.

ابن عمير عن عطية القرظى قال: عرضنا على النبى ﷺ يوم قريظة، فكان من أنبت قتل، ومن لن ينبت خُلِّى سبيله، فكنت ممن لم ينبت، فخلِّى سبيلى. قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم أنهم يرون الإنبات بلوغا إن لم يعرف احتلامه، ولا سِنّه، وهو قول أحمد وإسحاق[1].

وجاء سعد بن عبادة[2]، والخباب بن المنذر، فقالا: يا رسول الله! إن الأوس قد كرهت قتل بنى قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ: ما كرهه من الأوس أحد فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه الله، فقام أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله! لا يبقين دار من الأوس إلا فرقتهم فيها، فمن سخط فلا يرغم الله إلا أنفه.فابعث إلى دارى أول دورهم، ففرقهم فى دور الأوس فقتلوهم، وهذا يفيد أن الذين فرقوا على الأوس من لم يكن قتله على والزبير، لمجىء ابن عبادة والخباب أثناء القتل، وبقى عليه السلام عند الأخدود، حتى فرغوا منهم عند الغروب، فردعليهم التراب، فكان الذين أرسلوا إلى الأوس حملوا بعد القتل إلى الأخدود.

أفى كل موطن لا تعقــلون ؟ :

وكان بنو قريظة المتحجزون فى السجن مع سيدهم كعب بن أسد، كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم، لاذوا بسيدهم كعب، يسألونه فى جزع وهلع وفزع.. ما تراه يصنع بنا؟

فيجيبهم: أفى كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعى لا ينزع، وأنه من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل![3].

شيطان بنى النضيــر يتكلــم قبل إعــدامه :

وعندما جىء بشيطان بنى النضير حيّى بن أخطب إلى ساحة الإعدام، لم يخف بغضه للرسول الحبيب ﷺ، وحقده عليه، بل أعلن ذلك بكل صراحة وتبجّح، فى تلك الساعات الأخيرة من حياته الشريرة.

قال ابن إسحاق ــ يصف موقف حييّ ساعة إعدامه [4] ــ وأتى بحييّ بن أخطب

---

(١) الترمذى (١٥٨٤)، وأبو داود (٤٤٠٤)، والنسائى: ٦: ١٥٥، وابن ماجه (٢٥٤١).

(٢) المواهب : ٢: ١٣٧ بتصرف.

(٣) الروض الأنف: ٣: ٢٧٠.

(٤) سيرةابن هشام: ٢: ٢٤١.

عدو الله، وعليه حلّة فُقا حيّة ـ قال ابن هشام: فقاحية : ضرب من الوشى ـ(١).

قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل.

فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال:

أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها، هى ابنة هذا اليهودى حييّ بن أخطب، تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن قتل زوجها فى خيبر ـ كما سيأتى ـ فكانت رضى الله عنها من خيرة أمهات المؤمنين ومن أرجحهن عقلا.

الرجل الوحيد الذى لم يقتل :

قال ابن إسحاق: وحدثنى أيوب بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صعصعة أخو بنى عدى بن النجار: أن سلمى بنت قيس، أم المنذر، أخت سليط بن أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، وبايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظى، وكان رجلا قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت : يا نبى الله! بأبى أنت وأمى، هب لى رفاعة، فإنه سيصلّى، ويأكل لحم الجمل، قال: فوهبه لها فاستحيته(٢).

قصة عجيبة :

وفى الوقت الذى تم فيه تنفيذ حكم الإعدام العادل فى عصابة الغدر والخيانة والإجرام من يهود بنى قريظة(٣) ، حدثت قصة عجيبة مثيرة، محورها محارب يهودى قديم عنيد .

كان هذا اليهودى المحارب، واسمه: الزَّبير(٤) بن باطا، من قادةبنى قريظةفى الجاهلية، وكان قد أسدى معروفا كبيرا إلى ثابت بن قيس قبل الإسلام، فحاول هذا الصحابى الجليل أن يجزى هذا اليهودى على معروفه السابق، وأن يطلب العفو عنه، وكان له ما أراد،

---

(١) انظر : الروض الأنف : ٣: ٢٧٠، ولسان العرب (فقح).

(٢) المرجع السابق : ٢٧١ .   (٣) غزوة بنى قريظة : ٢٢٤ بتصرف .

(٤) عيون الأثر : ٢:٧٤ «الزَّبير» بفتح الزاى المشددة، و « الزُّبير » بضم الزاى إلا هذا .

ولكن الغريب فى الأمر أن هذا اليهودى أبى ـ بعد صدور العفو عنه ـ إلا أن يُقتل كما قُتل قومه، ليلحق بهم إلى الجحيم!

وتفصيل ذلك، هو أن بنى قريظة كانوا يُعتبرون فى السلم والحرب جزءا من قبيلة الأوس، وذلك بفعل رابطة التحالف القائمة بين القبيلتين، كما هى القاعدة المتبعة عند العرب فى الجاهلية.

ولذلك فإن يهود بنى قريظة كانوا إذا ما نشبت فى تلك الحروب الأهلية الطويلة معركة بين الأوس والخزرج يقفون إلى جانب الأوس، فيقاتلون معهم حتى النهاية كجزء لا يتجزأ منهم، كما كان يفعل يهود بنى النضير وبنى قينقاع مع الخزرج حلفائهم.

وعندما نشبت معركة« بعاث» الشهيرة فى الجاهلية بين الأوس والخزرج، والتى كان النصر الساحق فيها للأوس على الخزرج، وقع ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى أسيرا فى يد القائد اليهودى الزَّبير بن باطا هذا، الذى كان يقود بعض اليهود فى تلك المعركة ضد الخزرج.

وقد منّ الزَّبير هذا على ثابت بن قيس، حيث أخلى سبيله، بعد أن جزّ ناصيته، فحفظها ثابت يدا بيضاء له.

وعندما وقع بنو قريظة فى عملهم السيىء، وكان الحكم ـ كما عرفنا ـ تذكر ثابت ابن قيس ما لهذا اليهودى من يد، فأحب أن يرد له جميله، ولكن هذا اليهودى العنيد رفض ذلك وأبى إلا أن يموت كما مات زملاؤه فى الخسة والغدر والخيانة من بنى قريظة!

قال ابن إسحاق[1]: وقدكان ثابت بن قيس كما ذكر لى ابن شهاب الزهرى أتى الزَّبير بن باطا القرظى، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، وكان الزَّبير قد منّ على ثابت بن قيس فى الجاهلية، ذكر لى بعض ولد الزبير أنه كان منّ عليه يوم بعاث[3]، أخذه فجزّ ناصيته، ثم خلّى سبيلة، فجاء ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفنى؟ قال: وهل يَجهل مثلى مثلك، قال:إنى قد أردت أن أجزيك بيدك عندى. قال: إن الكريم يجزى الكريم. ثم أتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنه كان للزّبير عليّ منة، وقد أ حببت أن أجزيه بها، فهب لى دمه، فقال رسول الله ﷺ : « **هو لك** » فأتاه

(١) عيون الأثر : ٢: ٧٤ ـ ٧٥ والبداية : ٤: ١٢٥، والروض الأنف : ٣: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٢) انظر : مجمع الزوائد : ٦: ١٤١ ـ ١٤٢ فقد رواه الطبرانى فى الأوسط عن عائشة، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف.

فقال:إن رسول الله ﷺ قد وهب لى دمك فهو لك. قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! بأبى أنت وأمى، امرأته وولده، قال: « **هم لك** » قال: فأتاه فقال: قد وهب لى رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك، قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما له؟ قال: « **هو لك** » فأتاه ثابت فقال: قد أعطانى رسول الله ﷺ مالك، فهو لك. قال: أى ثابت، ما فعل الذى كأن وجهَه مرآة صينية تتراءى فيه عذارى الحي: كعب بن أسد؟ قال: قُتل. قال: فما فعل سيد الحاضر والبادى: حييّ بن أخطب؟ قال: قُتل. قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا عزال بن سموأل؟ قال: قُتل. فما فعل المجلسان: يعنى بنِي كعب بن قريظة، وبنى عمرو بن قريظة؟ قال: ذهبوا، قتلوا. قال: فإنى سائلك يا ثابت، بيدى عندك،إلا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قبلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت، فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله:« ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا مخلدا.

قال ابن سيد الناس(١): وذكر أبو عبيدة هذا الخبر، وفيه فقال رسول الله ﷺ:

« **لك أهلـه ومالـه إن أسـلم** » .

المرأة الوحيدة التى أعدمت :

ولم يقتل من نساء بنى قريظـة إلا امرأة واحدة، قال ابن إسحاق(٢): وقد حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشـة أم المؤمنين أنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحـدة، قالت: والله! إنها لعندى تحدث معى، وتضحك ظهرا وبطنا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانه؟ قالت:أنا والله، قالت: قلت لها ويلك، ما لك؟ قالت: أُقتل، قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، فانطلق بها فضربت عنقها، فكانت عائشة تقول: فوالله! ما أنسمى عجبا منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل.

---

(١) عيون الأثر : ٢: ٧٥، وانظر : زاد المعاد : ٣: ١٣٥.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢: ٢٤٢، والروض الأنف: ٣: ٢٧٠ والسيرة الحلبية: ٢: ١٢٠ ، وعيون الأثر:٢:٧٣.

قال ابن هشام: وهى التى طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

تقسيم الغنائـــم :

وبعد أن تم تنفيذ الحكم كان جمع أمتعتهم، وما فى حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب، فوجد فيها:

- (٢٠٠٠) ألفان من الرماح [١].
- (١٥٠٠) ألف وخمسمائة سيف.
- (٣٠٠) ثلاثمائة درع.
- (١٥٠٠) ألف وخمسمائة ترس وجحفة، وخمر، وجرار سكر، فأهريق ذلك.

وأخرج الخمس من المتاع والسبى، ثم أمر بالباقى فبيع فيمن يريد، قال فى المواهب[٢]: ظاهره أنه بيع ما عدا الخمس، وهو مخالف قول ابن إسحاق وغيره: بعث ﷺ سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى بسبايا من بنى قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بهم خيلا وسلاحا، وعند الواقدى بعث سعد بن عبادة بطائفة إلى الشام يبيعهم ويشترى بهم خيلا وسلاحا.

وقسمه بين المسلمين، فكانت على ثلاثة آلاف واثنين وسبعين سهما، للفرس سهمان، لأن الخيل كانت ستة وثلاثين فرسا، ولصاحبه سهم قال: وعلى هذا مضت السنة فى المغازى[٣].

قال فى المواهب[٤]: وروى أنه أعطى: صفية بنت عبد المطلب، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، وأم سعد بن معاذ، والسميراء بنت قيس، حضرن القتال، ولم يسهم لهن.

وصار الخمس إلى مَحْمِية بن جَزْء الزُّبيدى[٥]، فكان رسول الله ﷺ يعتق منه ويهب منه، ويُخدم منه من أراد، وكذلك صنع بما صار إليه من الرثّة.

هدى النبى ﷺ فى التقسـيم :

وكان النبى ﷺ إذا ظفر بعدوه، [٦] أمر مناديا، فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خمس الباقى، فوضعه حيث أراه الله، وأمره به من مصالح

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢: ٧٥ بتصرف، والمواهب اللدنية : ٢: ١٣٧.
(٢) المواهب اللدنية: ٢: ١٣٧. (٣) انظر الروض الأنف: ٣: ٢٧١. (٤) المواهب : ٢: ١٣٧.
(٥) الطبقات الكبرى: ٢: ٧٥ . (٦) زاد المعاد: ٣: ١٠٠ بتصرف .

الإسلام، ثم يَرْضَخ ـ أى يعطى العطية القليلة ـ من الباقى لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد.

يروى مسلم من حديث ابن عباس [1]: ... كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء، وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى، ويُحْذَيْن من الغنيمة، وأمّا بسهم، فلم يضْرب لهن.. وفيه أيضا حين سئل عن العبد والمرأة يحضران المغنم، هل يقسم لهما شىء؟ وإنه ليس لهما شىء. إلا أن يُحذيا..

قال ابن القيم: ثم قسم الباقى بالسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه، وللراجل سهم، هذا هو الصحيح الثابت عنه [2].

وكان ينفِّل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة، وقيل: بل كان النَّفل من الخمس، وقيل وهو أضعف الأقوال: بل كان من خمس الخمس.

وجمع لسلمة بن الأكوع فى بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس، فأعطاه أربعة أسهم لعظم غنائه فى تلك الغزوة [3].

وكان يُسوّى الضعيف والقوى فى القسمة ما عدا النفل.. أخرجه أبو داود من حديث ابن عباس، ورجاله ثقات[4].. وفى الباب عن عبادة بن الصامت فيما أخرجه أحمد[5]، وأيضا من حديث مكحول عن سعد قال[6]: قلت يا رسول الله! الرجل يكون حامية القوم أيكون سهمه وسهم غيره سواء؟ قال:

« **ثكلتك أمك ابن أم سعد ، وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم** » .

ورجاله ثقات، إلا أن مكحولا لم يسمع من سعد.

ويروى البخارى عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على

---

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١٣٧، ١٣٩ (١٨١٢)

(٢) انظر : البخارى : ٥٦ ـ الجهاد (٢٨٦٣) ، ومسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٥٧ (١٧٦٢).

(٣) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ١٣٢ (١٨٠٧) وفيه: ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس ، وسهم الراجل، فجمعهما لى جميعا.. وأبو داود (٢٧٥٢).

(٤) أبو داود (٢٧٣٩). (٥) أحمد : ٥: ٣٢٣، ٣٢٤. (٦) أحمد : ١: ١٧٣.

من دونه، فقال النبى ﷺ:

« هل تنصرون إلا بضعفائكم » [١].

وفى رواية للنسائى عنه بسند صحيح:

«إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»[٢].

وكان إذا أغار فى أرض العدو، بعث سرية بين يديه، فما غنمت أخرج خمسه، ونفّلها ربُع الباقى، وقسم الباقى بينها وبين سائر الجيش، وإذا رجع فعل ذلك، ونفّلها الثلث، وذلك فيما أخرجه أبو داود بسند صحيح من حديث حبيب بن مسلمة الفهرى، شهدت النبى ﷺ نفّل الربع فى البدأة، والثلث فى الرجعة [٣].

وكان يسهم لمن غاب عن الواقعة لمصلحة المسلمين، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر، ولم يحضرها، لمكان تمريضه لامرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ فقال:

« إن عثمان انطلق فى حاجة الله وحاجة رسوله وإنى أُبَايع له » .

فضرب له رسول الله ﷺ بسهم، ولم يضرب لأحد غاب غيره

رواه أبو داود من حديث ابن عمر، ورجاله ثقات[٤].

وقد استدل بهذا الحديث على أنه يسهم الإمام لمن كان غائبا فى حاجة له بعثه لقضائها[٥]، وأما من كان غائبا عن القتال لا لحاجة للإمام وجاء بعد الوقعة فذهب الشافعى ومالك والأوزاعى والثورى والليث إلى أنه لا يسهم له، وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه يسهم لمن حضر قبل إحرازها إلى دار الإسلام..

الجهاد والغنائم :

ومع أن غاية الجهاد قد تحددت معالمها، وتبين منها أنه جهاد لله، وفى سبيل أهداف تخص دعوة الله ودينه ومنهجه للحياة..

---

(١) البخارى: ٥٦ ـ الجهاد(٢٨٩٦).   (٢) النسائى : ٦: ٤٥.

(٣) أبو داود (٢٧٥٠) وصححه ابن حبان (١٦٧٢) وله شاهد من حديث عبادةبن الصامت عند أحمد : ٥: ٣١٩، ٣٢٠، وابن ماجة (٢٨٥٢)، والترمذى (١٥٦١)

(٤) أبو داود (٢٧٢٦).   (٥) عون المعبود : ٧: ٣٩٨.

ومع أن ملكية الغنائم التى تتخلف عن هذا الجهاد قد بت فى أمرها؛ فردت إلى الله والرسول وجرد منها المجاهدون، لتخلص نيتهم وحركتهم لله:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١).

مع هذا وذاك (٢)، فإن المنهج القرآنى الربانى يواجه الواقع الفعلى بالأحكام المنظمة له.. فهناك غنائم، وهناك محاربون..

وهؤلاء المحاربون يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم: هم يتطوعون للجهاد، وهم يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة، وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقون..

ثم هم يغنمون من المعركة غنائم، يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم فى الجهاد..

ولقد خلص الحق نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شىء يحيك من شأن هذه الغنائم، فرد ملكيتها ابتداء لله ورسوله..

وهكذا لم يعد من بأس فى إعطائهم نصيبهم من هذه الغنائم - وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم الله ورسوله - فيلبى هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية، ومشاعرهم البشرية، دون أن ينشأ عنه محظور من التكالب عليه، والتنازع فيه، بعد ذلك الحسم الذى جاء فى قوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

إنه منهج الله الذى يعلم طبيعة البشر، ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل، الذى يلبى حاجات الواقع، كما يلبى مشاعر البشر، وفى الوقت ذاته يتقى فساد الضمائر وفساد المجتمع، من أجل تلك المغانم..

---

(١) الأنفال: ٤١.　(٢) فى ظلال القرآن: ٣: ١٥١٨ وما بعدها بتصرف.　(٣) الأنفال: ١.

وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل حول مدلول « الغنائم» ومدلول «الأنفال » مما يطول الحديث فيه..

وإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا. فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، فقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة، ورجع الناس إلى الجاهلية التى كانوا عليها.. فأشركوا مع الله أربابا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعوا الناس من جديد إلى الدخول فيه.. إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان..

هذه هى القضية الحية الواقعية التى تواجه اليوم هذا الدين، وليس هناك - فى البدء - قضية أخرى سواها .. ليس هناك قضية غنائم، لأنه ليس هناك قضية جهاد!

ومنذ متى كانت قضية الغنائم من سمات المجتمع الإسلامى؟!

ها هم اليهود الذين لعنهم الله فى كتابه، وضرب عليهم الذلة والمسكنة يعيشون وسط المجتمع الإسلامى، ويصولون ويجولون!

وحسبنا أن نتبع الأصل الإيمانى فى السياق التاريخى الحركى، والمنهج القرآنى التربوى، فهذا هو العنصر الثابت، الذى لا يتأثر بالزمن، وكل ما عداه تبع له وقائم عليه.

وحسبنا - كذلك - أن نتذكر هدى النبى ﷺ فى تقسيم الغنائم، عسى أن نعيش عصر النصر على اليهود، ونبصر هذا الحكم واقعا عمليا..

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها فى المعركة، وردها إلى الله والرسول، ليخلص الأمر كله لله والرسول، وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض، وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول قائدهم، وليخوضوا المعركة لله فى سبيل الله، وتحت راية الحق، طاعة لله، يحكّمونه فى أرواحهم، ويحكّمونه فى أموالهم، ويحكمونه فى أمرهم كله بلا تعقيب ولا اعتراض. فهذا هو الإيمان:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

حتى إذا استسلموا لأمر الله، وارتضوا حكمه ذاك، فاستقر فيهم مدلول الإيمان..

عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة، ويستبقى الخمس على الأصل ـ لله والرسول ـ يتصرف فيه رسول الله ﷺ، وينفق منه على من يعولهم فى الجماعة المسلمة من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل..

عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة، وقد استقر فى نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح، فهم إنما يغزون ويفتحون لدين الله، إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها، كما أنه هو الذى يمنحهم النصر من عنده، ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله..

وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان.. هو شرط الإيمان، وهو مقتضى الإيمان :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

وهكذا تتواتر النصوص، لتقرر أصلا واضحا جازما من أصول هذا الدين، فى اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه..

ثم نقف أمام وصف الله سبحانه لرسوله ﷺ بقوله: «عبدنا» فى هذا الموضع الذى يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء، وأمر الخمس المتبقى أخيرا..

﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ ﴾

إنه وصف موح.. إن العبودية لله هى حقيقة الإيمان، وهى فى الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له، فهى تجلى وتذكر فى المقام الذى يوكل فيه إلى رسول الله ﷺ التبليغ عن الله، كما يوكل إليه فى التصرف عما خوله الله.

وإنه لكذلك فى واقع الحياة!

إنه لكذلك مقام كريم.. أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان..

إن العبودية لله وحده هى العاصم من العبودية للهوى، والعاصم من العبودية للعباد.. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه، كما يعتصم من العبودية لسواه.

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله وحده، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى! يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم! فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التى خص الله بها نوع« الإنسان » من بين سائر الأنواع، وينحدرون فى سلم الدواب، فإذا هم شر الدواب، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا ــ كما خلقهم الله ـ فى أحسن تقويم.

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيدا لله فى شر العبوديات الأخرى وأحطها.. يقعون فى عبودية العبيد من أمثالهم، يصرفون حياتهم وفق هواهم، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر، مشوبة بحب الاستعلاء، كما هى مشوبة بالجهل والنقص والهوى!

ويقعون فى عبودية « الحتميات » التى يقال لهم: إنه لا قبل لهم بها، وإنه لا بد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها :ـ

« حتمية التاريخ »!

و« حتمية الاقتصاد»!

و« حتمية التطور »!

وسائر الحتميات المادية التى تمرغ جبين « الإنسان» فى الرغام، وهو لا يملك أن يرفعه، ولا أن يناقش ـ فى عبوديته البائسة الذليلة ــ هذه الحتميات المذلة المخيفة!

أما الحديث عن « يوم الفرقان » فهو حديث عن يوم بدر، حيث كانت غزوة بدر فرقانا بين الحق والباطل.. وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيرا.. وفرقانا فى منهج هذا الدين ذاته، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم.. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس الكثيرين! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين.

رسول الله يصطفى ريحانة :

ونعود للحديث عن آثار هذه الغزوة، فنجد أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد

اصطفى لنفسه ريحانة بنت شمعون بن زيد، قال ابن حجر: [1] قيل: زيد بن عمرو بن قنافة ـ بالقاف ـ أو خناقة ـ بالخاء المعجمة ـ من بني النضير.. وقال ابن إسحاق: من بنى عمرو بن قريظة، وقال ابن سعد: ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خناقة بن شمعون بن زيد، من بني النضير، وكانت متزوجة رجلا من بنى قريظة، يقال له: الحكم، ثم روى ذلك عن الواقدى. قال ابن إسحاق في الكبرى: كان رسول الله ﷺ سباها، فأبت إلا اليهودية، فوجد رسول الله ﷺ فى نفسه، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: «هذا ثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة» فبشره، وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يارسول الله! بل تتركنى فى ملكك، فهو أخف على وعليك، فتركها، وماتت قبل وفاة رسول الله ﷺ بستة عشر، وقيل: لما رجع عن حجة الوداع.

وأخرج ابن سعد عن الواقدى بسند له عن عمر بن الحكم قال: كانت ريحانة عند زوج لها يحبها، وكانت ذات جمال، فلما سبيت بنى قريظة عرض السبى على النبى ﷺ فعزلها، ثم أرسل إلى بيت أم المنذر بنت قيس، حتى قتل الأسرى، وفرق السبى، فدخل إليها، فاختبأت منه حياء، قالت: فدعانى فأجلسنى بين يديه، وخيرنى فاخترت الله ورسوله، فأعتقنى وتزوج بى، فلم تزل عنده حتى ماتت، وكان يستكثر منها ويعطيها ماتسأله، وماتت مرجعه من الحج، ودفنها بالبقيع.

وقال ابن سعد: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى صالح بن جعفر، عن محمد بن كعب، قال: كانت ريحانة مما أفاء الله على رسوله، وكانت جميلة وسيمة، فلما قتل زوجها وقعت فى السبى، فخيرها رسول الله ﷺ، فاختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها،وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة فطلقها، فشق عليها وأكثرت البكاء، فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت قبل وفاته .

وأخرج من طريق الزهرى أنه لما طلقها كانت فى أهلها، فقالت : لايرانى أحدٌ بعده. قال الواقدى: وهذا وهم فإنها توفيت عنده، وذكر محمد بن الحسن فى أخبار المدينة عن الدراوردى عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعد أن رسول الله ﷺ خلا فى منزل من دار

---

(١) الإصابة: ٨: ٨٧ ـ ٨٨ بتصرف.

قيس بن قهد، وكانت ريحانة القرظية زوج النبى ﷺ سكنه، وقال أبو موسى: ذكرها ابن منده فى ترجمة مارية، ولم يفردها بترجمة، وقيل: اسمها «ربيحة» بالتصغير.

قال ابن حجر: بل أفردها، فإنه قال ما هذا نصه بعد ذكر الأزواج الحرائر: وسبى جويرية فى غزوة المريسع، وهى ابنة الحارث بن أبى ضرار، وسبى صفية بنت حيى بن أخطب من بنى النضير، وكانت مما أفاء الله عليه، فقسم لهما.. ثم قال: واستسرى ريحانة من بني قريظة، ثم أعتقها فلحقت بأهلها، واحتجبت وهى عند أهلها، وهذه فائدة جليلة أغفلها ابن الأثير.

وأخرج ابن سعد عن الواقدى من عدة طرق أنه ﷺ تزوجها وضرب عليها الحجاب، ثم قال: وهذا الأثر عند أهل العلم، وسمعت من يروى أنه كان يطؤها بملك اليمين.

وأورد ابن سعد من طريق أيوب بن بشر المغافرى أنها خيرت، فقالت: يارسول الله! أكون فى ملكك، فهو أخف على وعليك، فكانت فى ملكه يطأها إلى أن ماتت [١].

قتل أبى رافع:

وكان أبو رافع ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بنى قريظة، كما قتل صاحبه حيى بن أخطب [٢]، ورغبت الخزرج فى قتله مساواة للأوس فى قتل كعب بن الأشرف، طاغوت اليهود ـ كما سبق فى غزوة بنى قينقاع ـ وكان الله سبحانه وتعالى قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدى رسول الله ﷺ فى الخيرات، فاستأذنوه فى قتله، فأذن لهم.

قال البخارى: [٣] باب قتل أبى رافع عبد الله بن أبى الحقيق، ويقال سلام بن أبى الحقيق، كان بخيبر، و يقال فى حصن له بأرض الحجاز. وقال الزهرى: هو بعد كعب بن الأشرف. وروى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ رهطا إلى أبى رافع، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلا وهو نائم فقتله.

وفى رواية قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع اليهودى رجالا من الأنصار، فأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان فى

---

(١) انظر: عيون الأثر: ٢: ٧٥، ٣٠٦، والمواهب: ٢ : ١٣٧، وزاد المعاد: ١: ١١٣.

(٢) زاد المعاد: ٣ : ٢٧٥. (٣) البخارى : ٦٤ ـ المغازى ١٦ باب قتل أبى رافع.

حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه ــ وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم ــ (١) فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه، كأنه يقضى حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود. (٢) قال : فقمت إلى الأقاليد (٣) فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له (٤)، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل. قلت: إن القوم نذروا بى، (٥) لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتهيت إليه فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت، فقلت أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش، فما أغنيت شيئا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت ما هذا الصوت ياأبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثخنته، ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب (٦) السيف فى بطنه، حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته ، فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك: قام الناعى على السور فقال:أنعى (٧) . أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى، فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته، فقال لى:

---

(١) أى رجعوا بمواشيهم التى ترعى وسرح بفتح المهملة وسكون الراء بعدها مهملة هى السائمة من إبل وبقر وغنم. فتح البارى : ٧: ٤٤٣.

(٢) الأغاليق جمع غلق بفتح أوله: مايغلق به الباب، والمراد بها المفاتيح، كأنه كان يغلق بها ويفتح بها، كذا فى رواية أبى ذر، وفى رواية غيره بالعين المهملة وهو المفتاح بلا أشكال، والود: بفتح الواو وتشديد الدال هو الوتد.المرجع السابق: ٣٤٤ . (٣) الأقاليد جمع إقليد، وهو المفتاح.

(٤) العلالى بالمهملة جمع علّية بتشديد التحتانية ، وهى الغرفة.

(٥) نذروا بكسر الذال المعجمة: أى علموا، وأصله من الإنذار، وهو الإعلام بالشىء الذى يحذر منه.

(٦) وزن رغيف، قال الخطابى هكذا يروى وما أراه محفوظا ، وإنما هو ظبة السيف، وهو حرف حد السيف، ويجمع على ظبات، قال: والضبيب لا معنى له هنا، لأنه سيلان الدم من الفم، قال عياض: هو فى رواية أبى ذر بالصاد المهملة، وكذا ذكره الحربى، وقال: أظنه طرفه، وفى رواية غير أبى ذر بالمعجمة، وهو طرف السيف.

(٧) كذا ثبت فى الرويات بفتح العين، قال ابن التين: هى لغة، والمشهور: انعوا: والنعى: خبر الموت، والاسم الناعى. وذكر الأصمعى أن العرب كانوا إذا مات فيهم الكبير ركب راكب فرسا وسار فقال: نعي فلان.

« ابسط رجلك » .

فبسط رجلى فمسحها، فكأنها لم أشتكهٰا منها قط.

وفى رواية قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبه، فى ناس معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك : امكثوا أنتم، حتى أنطلق أنا فأنظر، قال: فتلطفت أن أدخل الحصن، ففقدوا حمارا لهم، فخرجوا بقبس يطلبونه، قال: فخشيت أن أعرف، قال: فغطيت رأسى كأنى أقضى حاجة، ثم نادى صاحب الباب: من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه، فدخلت ثم اختبأت فى مربط حمار عند باب الحصن، فتعشوا عند أبى رافع، وتحدثوا حتى ذهبت ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات، ولا أسمع حركة خرجت، قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن فى كوة فأخذته ففتحت باب الحصن، قال: قلت: إن نذر بى القوم انطلقت على مهل، ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم،فغلقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدت إلى أبى رافع فى سلم، فإذا، البيت مظلم قد طفئ سراجه، فلم أدر أين الرجل؟ فقلت: يأبا رافع، قال: من هذا؟ قال: فعمدت نحو الصوت، فأضربه، وصاح، فلم تغن شيئا، قال: ثم جئت كأنى أغيثه، فقلت: مالك يا أبا رافع؟ وغيرت صوتى، فقال: ألا أعجبك؟ لأمك الويل، دخل على رجل فضربنى بالسيف، قال، فعمدت له أيضا، فأضربه أخرى، فلم تغن شيئا، فصاح، وقام أهله، قال: ثم جئت وغيرت صوتى كهيئة المغيث فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف فى بطنه، ثم أنكفئ عليه، حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشا، حتى أتيت السلم، أريد أن أنزل، فأسقط منه، فانخلعت رجلى فعصبتها، ثم أتيت أصحابى أحجل، فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ ، فإنى لأبرح حتى أسمع الناعية، فلما كان فى وجه الصبح صعد الناعية، فقال:أنعى أبا رافع، قال: فقمت أمشى ما بى قلبة، فأدركت أصحابى قبل أن يأتوا النبى ﷺ فبشرته (١) .

قال ابن حجر: (٢) قال ابن إسحاق: هو سلام ـ أى بتشديد اللام ـ قال: لما قتلت الأوس كعب بن الأشرف استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتل سلام بن أبى الحقيق،وهو بخيبر فأذن لهم قال: فحدثنى الزهرى عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: كان مما صنع الله لرسوله أن الأوس والخزرج كانا يتصاولان تصاول الفحلين، لا تصنع

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٠٣٨، ٤٠٣٩، ٤٠٤٠) وانظر : ٥٦ ـ الجهاد (٣٠٢٢)، (٣٠٢٣) .

(٢) فتح البارى : ٧: ٣٤٢ وما بعدها بتصرف.

الأوس شيئا إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون بهذه فضلا علينا، وكذلك الأوس، فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف تذاكرت الخزرج، من رجل له من العداوة لرسول الله ﷺ كما كان لكعب؟ فذكروا ابن أبى الحقيق، وهو بخيبر.

وقوله: « ويقال فى حصن له بأرض الحجاز» وهو قول وقع فى سياق الحديث الموصول السابق، ويحتمل أن يكون حصنه كان قريبا من خيبر فى طرف أرض الحجاز.

ووقع عند موسى بن عقبه: «فطرقوا أبا رافع بن أبى الحقيق بخيبر، فقتلوه فى بيته»

قول الزهرى: «هو بعد كعب بن الأشرف» وصله يعقوب بن سفيان فى تاريخه عن حجاج بن أبى منيع عن جده عن الزهرى.

قال ابن سعد: [١] سرية عبد الله بن عتيك إلى أبى رافع سلام بن أبى الحقيق النضرى بخيبر فى شهر رمضان سنة ستة من مهاجر رسول الله ﷺ.

وقيل: [٢] فى ذى الحجة سنة خمس، وقيل فيها سنة أربع، وقيل فى رجب سنة ثلاث.

قال ابن حجر: وفى هذا الحديث من الفوائد:[٣]

١ ــ جواز اغتيال المشرك الذى بلغته الدعوة وأصر.

٢ ــ وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده أو ماله أو لسانه.

٣ ــ وجواز التجسيس على أهل الحرب وتطلب غرتهم.

٤ ــ والأخذ بالشدة فى محاربة المشركين.

٥ ــ وجواز إبهام القول للمصلحة.

٦ ــ وتعرض القليل من المسلمين للكثير من المشركين.

٧ ــ والحكم بالدليل والعلامة، لاستدلال ابن عتيك على أبى رافع بصوته، واعتماده على صوت الناعى بموته.

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢: ٩١ (٢) فتح البارى: ٧: ٣٤٢ (٣) المرجع السابق: ٣٤٥.

قول حســـان :

وهنانذكر قول حســـان بن ثابت وهو يذكر قتـل أبى الحقـيق، وكعـب بن الأشـرف: [1].

لله درّ عصـابـــة لا قيتَهــم	.·.	يا بن الحُقيق وأنت يا ابن الأشـرَف
يَسْـرُون بالبيض الدقاق إليكمُ	.·.	مَرَحاً كأُسْدٍ فى عرِينٍ مُغْـرِفِ [2]
حتى أتوكُمْ فى محلّ بلادكمْ	.·.	فسـقوكمُ حتفاً ببيضٍ قَـرْقَفِ [3]
مُستبصِرين لنصرِ دين نبيِهّـم	.·.	مُسْتَصغِرين لكُلِّ أمرٍ مُجْحِـفِ [4]

شهيد يهتز له عرش الرحمن :

وإذا كنا قد ذكرنا دعاء سعد رضى الله عنه، فإن لنا أن نقف أمام قوله:

«فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم» فقد قال بعضهم:

لم يصب فى هذا الظن، لما وقع من الحروب فى الغزوات بعد ذلك، فيحمل على أنه دعا بذلك، فلم تقع الإجابة، وادخر له ماهو أفضل من ذلك.. [5] أو أن سعدا أراد بوضع الحرب، أى فى تلك الغزوة الخاصة لافيما بعدها. وذكر ابن التين عن الداودى أن الضمير لقريظة، قال ابن التين: وهو بعيد جدا، لنصه على قريش...

قال ابن حجر: والذى يظهر لى أن ظن سعد كان مصيبا، وأن دعاءه فى هذه القصة كان مجابا، وذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش من بعد وقعة الخندق حرب يكون ابتداء القصد فيها من المشركين، فإنه ﷺ تجهز إلى العمرة فصدوه عن دخول مكة، وكاد الحرب أن يقع بينهم فلم يقع، كما قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [6].

ثم وقعت الهدنة،واعتمر ﷺ من قابل، واستمر ذلك إلى أن نقضوا العهد ، فتوجه

---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى: ١٥٩، وانظر: المواهب اللدنية: ٢: ١٧٠.

(٢) المغرف: أى الذى فى الغريف، و،هو الأجمة من البردى.

(٣)القرقف: الخمر التى ترعد شاربها، وأراد هنا بسيوف تصرعكم تصرع الخمر شاربها.

(٤) المجحف: الذاهب بالنفوس والأموال المرجع السابق.

(٥) فتح البارى : ٧: ٤١٤ بتصرف .

(٦) الفتح: ٢٤.

إليهم غازيا، ففتحت مكة، فعلى هذا المراد بقوله: «أظن أنك وضعت الحرب » أى أن يقصدونا محاربين، وهو كقوله ﷺ فى الحديث الماضى:

« **نغزوهم ولا يغزوننا** » .

وقد بين سبب انفجار جرح سعد في مرسل حميد بن هلال عند ابن سعد، ولفظه: أنه مرت به عنز وهو مضطجع، فأصاب ظلفها موضع الجرح فانفجر حتى مات.

ولمسلم من طريق عبدة عن هشام: [1] فانفجر من ليلته. فما زال يسيل حتى مات، وزاد فى الحديث قال: فذاك حين يقول الشاعر:

ألا ياسعدُ سعدَ بنيِ مُعاذٍ .:. فما فعلتْ قريظةُ والنضيرُ
لعمْرك إن سعدَ بنى معاذ .:. غداةَ تحمّلوا لهْوَ الصبورُ
تركتمْ قِدرَكم لاشيء فيها .:. وقدرُالقوم حامية تفُورُ
وقد قال الكريم أبو حُباب .:. أقيموا قَيْنَقَاعُ ولا تسَيرُوا
وقد كانوا بِبَلْدَتهم ثِقَالا .:. كما ثَقُلَتْ بِمَيطَانَ [2] الصُّخُورُ

وذكر ابن اسحاق قول حسان :

تفاقَدَ معشرٌ نصروا قريشا .:. وليس لهم ببلدتهم نصير
همُ أوتوا الكتاب فضيَّعُوه .:. فهمْ عميٌ من التَّوْراة بُورُ
كفرتم بالقُرآن وقد أُتيتُمْ .:. بتصديقِ الذى قال النزيرُ
وهان على سَرَاة بنيِ لُؤَىٍّ .:. حريقٌ بالبوَيْرَة [3] مستطيرُ [4]

هذا هو سعد بن معاذ الذى قال فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب رضى الله عنه يقول: أهديت للنبى ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها فقال:

---

(١) مسلم: ٣٢ ـ الجهاد ٦٨ (ت ١٧٦٩) .

(٢) اسم جبل من أرض الحجاز فى ديار بنى مزينة: جامع الأصول : ٨: ٢٧٤ .

(٣) البويرة: موضع بنى قريظة.

(٤) ديوان حسان: ١١٠، وانظر: فتح البارى :٧: ١١٥ ـ ١١٦

« **أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها وألين** » [1] .

وفي رواية عن جابر رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول :

« **اهتز العرش لموت سعد بن معاذ** » .

زاد البخارى: فقال رجل لجابر: فإن البراء يقول اهتز السرير فقال: إنه كان بين الحيين ضغائن، سمعت النبى ﷺ يقول:

« **اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ** » .

وفى رواية لمسلم قال: قال رسول الله ﷺ ، وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم :

« **اهتز لها عرش الرحمن** » [2] .

قال الخطابى: إنما قال جابر ذلك، لأن سعد كان من الأوس، والبراء خزرجى والخزرج لا تقر للأوس بفضل، كذا قال ابن حجر: [3] وهو خطأ فاحش، فإن البراء أيضا أوسى، لأنه ابن عازب بن الحارث بن عدى بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج ابن عمرو بن مالك بن الأوس، يجتمع مع سعد بن معاذ فى الحارث بن الخزرج، والخزرج ولد الحارث بن الخزرج، وليس هو الخزرج الذى يقابل الأوس وإنما سمى على اسمه، نعم الذى من الخزرج الذين هم مقاتلو الأوس جابر، وإنما قال جابر ذلك إظهاراً للحق ، واعترافًا بالحق لأهله ، فكأنه تعجب من البراء كيف قال ذلك مع أنه أوسى، ثم قال: أنا وإن كنت خزرجيا، وكان بين الأوس والخزرج ما كان، لا يمنعنى ذلك أن أقول الحق ، فذكر الحديث. والعذر للبراء أنه لم يقصد تغطية فضل سعد بن معاذ، وإنما فهم ذلك فجزم به، هذا الذى يليق أن يظن به، وهو دال على عدم تعصبه.

ولما جزم الخطابى بما تقدم احتاج هو ومن تبعه إلى الاعتذار عما صدر من جابر فى حق البراء، وقالوا فى ذلك ما محصله: إن البراء معذور، لأنه لم يقصد ذلك على سبيل العداوة لسعد، وإنما فهم شيئا محتملا فحمل الحديث عليه.

والعذر لجابر أنه ظن أن البراء أراد الغض من سعد، فساغ له أن ينتصر له.

---

(١) البخارى: ٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٨٠٢)، ومسلم: ٤٤ ـ فضائل الصحابة ١٢٦ (٢٤٦٨)، والترمذى (٣٨٤٦) .

(٢) البخارى:٦٣ ـ مناقب الأنصار (٣٨٠٣)،ومسلم:٤٤ فضائل الصحابة١٢٣ (٢٤٦٦)، والترمذى (٣٨٤٧).

(٣) فتح البارى : ٧: ١٢٣ ـ ١٢٤ بتصرف.

وقد أنكر ابن عمر ما أنكره البراء فقال: إن العرش لا يهتز لأحد، ثم رجع عن ذلك، وجزم بأنه اهتز له عرش الرحمن، أخرج ذلك ابن حبان من طريق مجاهد عنه، والمراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه، يقال لكل من فرح بقدوم قادم عليه اهتز له، ومنه اهتزت الأرض بالنبات، إذا خضرت وحسنت.. ثم ذكر حديث الترمذى بسند صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه فى بنى قريظة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال:

« **إن الملائكة كانت تحمله** » [1] .

ورواه الحاكم عنه بسند صحيح، فقال :

« **لا ولكن الملائكة كانت تحمله** » [2] .

وقيل: المراد باهتزاز العرش اهتزاز حملة العرش .. [3] .

وقيل: هى علامة نصبها الله لموت من يموت من أوليائه، ليشعر ملائكته بفضله .

وقال الحربى: إذا عظموا الأمر نسبوه إلى عظيم، كما يقولون: قامت لموت فلان القيامة، وأظلمت الدنيا، ونحو ذلك، وفى هذه منقبة عظيمة لسعد.

وأما تأويل البراء على أنه أراد بالعرش السرير الذى حمل عليه فلا يستلزم ذلك فضلا له، لأنه يشركه فى ذلك كل ميت، إلا أنه يريد اهتز حملة السرير فرحا بقدومه على ربه فيتجه.

ثم قال: وقد جاء حديث اهتزاز العرش لسعد بن معاذ عن عشرة من الصحابة أو أكثر، وثبت فى الصحيحين، فلا معنى لإنكاره..

لك الله ياسعد..

لك الله ياشهيد..

لك الله يامن اهتز عرش الرحمن لموتك..

---

(١) الترمذى (٣٨٤٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢)الحاكم:٣: ٢٠٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

(٣) فتح البارى : ٧: ١٢٤ بتصرف.

لك الله يامن حملتك الملائكة..

ألا إن التاريخ الإنسانى، بطوله وعرضه، لم يشهد من الصدق والثبات، بعد الأنبياء والمرسلين، ماشهده فى أولئك الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه..

نعم، لم يشهد التاريخ الإنسانى، بطوله وعرضه، بعد الأنبياء والمرسلين، مؤمنين صادقين عقدوا عزمهم ونواياهم، على غاية تناهت فى الإجلال والإكبار، ثم نذروا لها حياتهم على نسق تناهى فى التضحية والعطاء والبذل والفداء، كما شهد فى أولئك الشهداء رضى الله عنهم.. حقا، لقد جاءوا والدنيا فى أوانهم المرتقب، ويومهم الموعود..

حين كانت الحياة تهيب بمن يجدد لقيمها الروحية شبابها وصوابها..

وحين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها وأصفادها.. ويحرر وجودها ومصيرها..

وحين كانت تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطالع جديدة ورشيدة..

جاءوا دعاة تقاة..

جاءوا ناسكين عابدين..

جاءوا يحملون أعناقهم على أكفهم فى سبيل نصر دينهم وتبليغ دعوتهم..

يشيدون بالدين القيم عالما جديدا.. يهتز نضرة.. ويتألق عظمة.. ويتفوق اقتدارا..

ولكم الله ياشهداء الإسلام عبر التاريخ..

وألحقنا الله بكم فى مستقر رحمته إخوانـا على سرر متقابلين.. آمين.

نهاية المعركـــة:

ونعود إلى القرآن الكريم فنجده يختم الحديث عن هذا الحدث الضخم بعاقبته التى تصدق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم ـ كما أسلفنا ـ وتثبت القيم الإيمانية بالنهاية الواقعية:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[1].

وقد بدأت المعركة[2]، وسارت فى طريقها، وانتهت إلى نهايتها ـ كما عرفنا ـ وزمامها فى يد الحق، يصرفها كيف يشاء..

وأثبت النص القرآنى هذه الحقيقة بطريقة تعبيره. فأسند إلى الله تعالى إسنادا مباشرا كل ماتم من الأحداث والعواقب، تعقيبا لهذه الحقيقة، وتثبيتا لها فى القلوب، وإيضاحا للتصور الإسلامى الصحيح.

ولم تدر الدائرة على المشركين من قريش وغطفان وحدهم.. بل دارت كذلك على بنى قريظة حلفاء المشركين من يهود.

يقول ابن كثير[3]: قوله تعالى: «وأنزل الذين ظاهروهم» أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ «من أهل الكتاب» يعنى بنى قريظة من اليهود، من بعض أسباط بنى إسرائيل، كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾[4].

فعليهم لعنة الله، وقوله تعالى «من صياصيهم» يعنى حصونهم، كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم من السلف، ومنه سمى صياصى البقر، وهى قرونها، لأنها أعلى شىء فيها «**وقذف فى قلوبهم الرعب**» وهو الخوف، لأنهم مالؤوا المشركين على حرب النبى ﷺ، وليس من يعلم كمن لايعلم، وأخافوا المسلمين، وراموا قتلهم، ليعزوا هم فى الدنيا، فانعكس عليهم الحال، وانقلب إليهم القتال[5]، لما انشمر المشركون، وراحوا بصفة المغبون، فكما راموا العز ذلوا، وأرادوا استئصال المسلمين

(١) الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) انظر فى ظلال القرآن: ٥: ٢٨٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣: ٤٧٨ بتصرف.

(٤) البقـرة : ٨٩.

(٥) تفسير القاسمى: ١٣: ٤٨٤٥ ـ ٤٨٤٦ بتصرف.

فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة، ولهذا قال تعالى:

﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

يعنى قتل الرجال المقاتلة، وسبى الذرارى والنساء..

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شر مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم يبق إلا بقية من كبارهم بخيبر مع أهلها، وهم الذين كانوا السبب فى إثارة الأحزاب!

يا لله! ما أسوأ عاقبة الطيش! قد تكون الأمة مرتاحة البال، هادئة الخواطر، حتى تقوم جماعة من رؤسائها بعمل غدر يظنون من ورائه النجاح، فيجلب عليهم الشرور، ويشتتهم من ديارهم. وهذا ما حصل لليهود فى الحجاز، فقد كان بينهم وبين المسلمين عهود يأمن بها كل منهم الآخر، ولكن اليهود لم يوفوا بتلك العهود حسدا منهم وبغيا. فتم عليهم ماتم، سنة الله فى المفسدين..

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع[1]، وهو التعقيب الذى يرد الأمر كله إلى الله.

وقد مضى السياق فى عرض المعركة كلها ـ كما عرفنا ـ يرد الأمر كله إلى الله، ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة، تثبيتا لهذه الحقيقة الكبيرة التى يثبتها الله فى قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامى فى النفوس.

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم. وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التى جاء القرآن الكريم ليقيمها فى قلوب الجماعة المسلمة وفى حياتها على السواء.

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية، ويصبح القرآن الكريم دليلا للحياة وأحداثها، ولا تجاهها وتصوراتها.. وتستقر القيم، وتطمئن القلوب، بالابتلاء والقرآن سواء!

---

(١) فى ظلال القرآن : ٥: ٢٨٤٩ بتصرف.

أهــم المراجــع

١ ـ الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان، علاء الدين الفارسى، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.

٢ ـ الأدب المفرد، للبخارى، ط السلفية بالقاهرة ١٣٧٥هـ.

٣ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة،لابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤ ـ البداية والنهاية، لابن كثير، بيروت، ط ثالثة ١٩٧٨م.

٥ ـ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير، ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

٦ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) لابن جرير الطبرى، البابى الحلبى، ط ثالثة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٧ ـ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) للقاسمى، عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

٨ ـ تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت١٩٦٧م.

٩ ـ تهذيب سيرة ابن هشام، للأستاذ عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة،ط ثانية، القاهرة ١٩٦٤م.

١٠ ـ جامع الأصول فى أحاديث الرسول، لابن الأثير، تحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، الملاح، ط أولى ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

١١ ـ جوامع السيرة النبوية، لابن حزم، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣م و ط ثانية، تراث الإسلام.

١٢ ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، دار صادر بيروت .

١٣ ـ الرسـول القائد ، للواء الركن محمـود شـيت خطاب ، دار الفكر ، بيروت ، ط خامسة.

١٤ ـ الروض الأنف ، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٥ ـ زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم (فتح المنعم ببيان ما احتيج لبيانه من زاد المسلم) للشنقيطى،ط مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع.

١٦ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة المنار الإسلامية، ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٧ ـ سنن ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

١٨ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية الأولى و ط المدينة المنورة.

١٩ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) للترمذى، ط بولاق ١٢٩٢هـ ـ وط الهند وط الحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٠ ـ سنن النسائى، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى، ط دار الكتاب العربى، بيروت.

٢١ ـ السيرة الحلبية(إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) للحلبى، بيروت، المكتبة الإسلامية، دار إحياء التراث العربى، وبهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية،لأحمد زينى دحلان.

٢٢ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد،ط حجازى بالقاهرة وط الحلبى.

٢٣ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٢٤ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى.

٢٥ ـ صحيح مسلم، بشرح النووى، ط المصرية.

٢٦ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٢٧ ـ طرح التثريب فى شرح التقريب، للعراقى وأبى زرعة، دار المعارف، سوريا.

٢٨ ـ عون المعبود: شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق الأستاذ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

٢٩ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادى، دار المعرفة بيروت.

٣٠ ـ غزوة بنى قريظة، للأستاذ محمد أحمد باشميل، دار الفكر، ط ثانية ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

٣١ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى ، لابن حجر، الرياض الحديثة ، البطحاء ، الرياض.

٣٢ ـ الفصول فى (اختصار) سيرة الرسول، لابن كثير، دمشق، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، دار القلم ١٩٨٠م وأيضا المدينة المنورة، مكتبة دار التراث ١٩٨٣م.

٣٣ ـ فقه السيرة، للشيخ محمد الغزالى، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط دار القلم، الثانية، دمشق ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٤ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى،بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ثالثة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٥ ـ محمد رسول الله ﷺ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط أولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٣٦ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى،ط أولى حيدر آباد.

٣٧ ـ مسند أحمد، لأبى عبد الله أحمد بن حنبل، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى، ط الميمنية بمصر.

٣٨ ـ موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للهيثمى، تحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، بيروت، دار الكتب العلمية ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٨م.

٣٩ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة،بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

٤٠ ـ الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٤١ ـ ميزان الاعتدال فى نقد الرجال، للذهبى، عيسى البابى، تحقيق الأستاذ على محمد البجاوى، ط أولى ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــــرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
« اذكروا نعمة الله عليكم»	٣٩
الفصل الثانى :فى الطريق إلى بنى قريظة	٤١
نقض العهد	٤٣
الأمر بالخروج	٤٣
الجمع بين الروايتين	٤٥
من فقه الحديث	٤٦
أيهما كان أصوب ؟	٤٩
تأخير الصلاة	٥٠
احترام وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد	٥٠
أمير المدينة	٥٢
علىّ يحمل الراية	٥٣
طبيعة اليهود	٥٣
محاولة إنقاذ الموقف	٥٤
صورة وضيئة	٥٥
« خير أمة»	٥٦
ترغيب أهل الكتاب فى الإيمان	٥٨
« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »	٥٨
« ثم لا ينصرون »	٥٩
المعصية والاعتداء	٦٠
« ليسوا سواء »	٦١
عمرو بن سعد القرظى	٦١
مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم	٦٢
يهودية تقتل مسلماً	٦٢
رئيس بنى قريظة ينصح قومه	٦٣
الوقت والمباغتة	٦٥
محاولة اليهود الأخيرة	٦٧
أهل أبى لبابة وأمواله فيهم	٦٧
أبو لبابة يربط نفسه فى المسجد	٦٨
توبة أبى لبابة	٦٩
تحذير وتذكير	٧١

الموضوع	الصفحة